الفصل الرابع

أطلس في العقـــل
An Atlas in the Mind

العقل ليس له حدود (مَثَلٌ توفاني).

إن اللغة هى أكبر وأشمل فن نعرفه، عمل ضخم لا واعٍ صنعته أجيال مجهولة.

(إدوارد سابير، اللغة، ١٩٢١م)

بعد التنقل لاثنتي عشرة ساعة بالعربة في أدغال سيبيريا، أيقنت أننا قد ضللنا الطريق، فقد انطلقنا كمجموعة من ثلاثة لغويين ومعنا دليل من أهل التوفا على الأقدام مبكراً في صباح ذلك اليوم من قرية نرسا Nersa البعيدة. وقرية نرسا والتي تقع في أعالي جبال السايان Sayan Mountains هى القرية الأصغر من بين ثلاثة قرى تسكنها قبيلة التوفا رعاة الرنة. لا يمكن الوصول إلى هذه القرية، التي يسكنها مائة شخص من المكافحين، إلا بالمروحيات أو على ظهر الرنة أو سيراً على الأقدام. يعيش التوفيون الذين قابلناهم على مساحات زراعية صغيرة ويعملون بالصيد وجمع ثمار التوت وغيرها من مأكولات الغابة وبعض الإمدادات التموينية القليلة (الدقيق، السكر، الفودكا) التي تحملها المروحيات الروسية البالية من آن لآخر. وقد أخبرنا السكان هناك بأن قطعان الرنة المستأنسة التي يمتلكونها قد أخذت طريقها إلى البرية وفرت منهم.

وعندما رأى القرويون أن قطعانهم لم تعد مصدراً للرزق، وقع كثير منهم فريسة لليأس وإدمان الكحوليات. ورغم سوء الأوضاع، فقد قوبلنا بحفاوة بالغة ووجدنا الناس على شوق لرواية قصصهم. ربما يكون مرد ذلك أنهم لم يجدوا من الآخرين من يرغب في الاستماع إلى رواياتهم بلغة التوفا. حقاً، لم يعد هناك شخص أقل من ٥٥ عاماً يتحدث لغة التوفا. أخذت فالنتينا. س Valentina.S، والبالغة من العمر ٣٥ عاماً، تحكي لنا قائلة "لقد أرسلوا بنا جميعاً إلى مدارس داخلية، ولهذا السبب فإننا لا نعرف لغتنا".

أخذنا نطوف بقرية نرسا لثلاثة أيام نبحث عن أي شخص يعرف حتى ولو كلمات قلائل من لغة التوفا. توقف فوفا Vova والبالغ من العمر ثمانية عشر عاماً عن لعب الكرة الطائرة مع زملائه ليخبرنا نكته ثنائية اللغة. لقد سُرِدَت النكتة كاملة باللغة الروسية فيما عدا بضع كلمات أساسية مثل "الخنزير" و"القضيب" والتي كانت بلغة التوفا وتصحبها قهقهات عالية. دونت نكتة فوفا بكل أمانه في دفتر الميدان الذي كنت أحمله آملاً أن يكون فوفا واحداً من الشبان ثنائيي اللغة. غير أن هاتين الكلمتين اللتين نطق بهما فوفا في نكتته عن أُنثى الخنزير السمينة اتضح أنهما الكلمتان الوحيدتان اللتان تمثلان كل مفرداته اللغوية في لغة التوفا.

على طرف النقيض في معيار العمر والحكمة، نجد أكبر قاطني قرية نرسا عمراً وهو العم بيتر بي Uncle Peter. B، المولود عام ١٩٢٥ م، يجلس بمفرده في حجرته الريفية الخشبية والتي لم تكن تحوي شيئاً سوى سرير صغير، و نجمة خشبية حمراء وضعت على حجرة بيتر تكريماً له كأحد قدامى المحاربين في الحرب الوطنية الكبرى (الحرب العالمية الثانية). وقفنا متحجرين على أرضية غرفة بيتر الوقحة، نهش عنا البراغيث ونتشبث بكل كلمة يقولها. لقد حكى لنا العم بيتر، وهو يتعتع، ولكنه لا

يتحدث إلا بالتوفا، كيف أنه في عام ١٩٤٦ م عاد وحيداً على قدميه من الجبهة الشرقية للحرب؛ حيث كان قد أرسلوه كمجند في الجيش الأحمر لمحاربة اليابانيين في منشوريا. لقد استغرقته تلك الرحلة، والتي بلغت ١٤٠٠ ميلاً، شهوراً كاملة. لقد أثبتت تلك الرحلة قدرة الرجل الرائعة على البقاء، ومهاراته في تحديد الاتجاهات وتركته أعرج عرجاً دائماً. لقد تحركت مشاعر بيتر في لقاءاته معنا، فقد قال والدمع يزرف من عينيه "لا أصدق أن الأجانب يتحدثون معي وبلغتي، التوفا، إنه شيء يشبه الحلم "[١].

وعلى بعد منزلين حكى لنا كونستنتين م. Constantine M وهو رجل جيد الصحة، عميق الصوت، يبلغ ٥٦ عاماً، حكاية بلغة التوفا عن ثلاثة أخوة التجأوا للجبال كعقاب لهم بعد شجار حول وراثة قطعة أرض، وأشار بإصبعه إلى سلسلة سايان الجبلية وأوضح أن تلك القمم الثلاث كانت في السابق هي الأخوة الثلاثة. وحكى لنا أيضاً كيف أنه كان يُعَاقَبُ عندما كان طفلاً إذا تحدث بلغته الأم وكيف أنه ضُرب بالعصا وحُبسَ في الصف الأول لمدة خمس سنوات لأنه لم يستطع أن يرد على المعلمة باللغة الروسية. لقد أضحت قصته عن الحزي وهجران لغة الأجداد قصة مكررة عند التوفا.

في الجانب الآخر من الطريق، وعلى بعد مسافة قريبة، قابلنا سفيتلانا أ. Svetlana A، سيدة مرحة تبلغ ٦٢ عاماً و تعمل مدرسة سابقة في المدرسة الابتدائية وهى تنقي الحشائش من حديقة البطاطس التي تمتلكها. لقد كانت هذه المرأة من الجيل الذي تعرض للضغوط كي يصبح روسياً. أخذت المرأة تحكي قائلة: " لقد عشت في السكن الطلابي التابع لمدرسة داخلية لمدة عشر سنوات، وأثناء تلك الفترة لم أسمع كلمة واحدة من لغة التوفا، ولم أكن أدرك أنني على معرفة بتلك اللغة. أعتقد أن

الكل كان يتحدث الروسية ، فقد كان ممنوعاً التحدث بلغة التوفا في ذلك الوقت. هذه اللغة الجميلة الصعبة! الآن لقد ذهبت إلى طي النسيان. لقد أصبح الجميع من الروس."

لقد حكت لنا سفيتلانا حكاية مثيرة للمشاعر عن امرأة ورجل عاشا في أدغال الغابة، لم يشاهدا أي شخص ردحاً من الزمن حتى أنهما أيقنا أنهما الوحيدان اللذان يعيشان في هذا العالم بأسره. أنقذهم من هذه الانعزالية نباح كلبهما الذي جذب انتباه صياد متجول فعرض أن يأخذهما إلى حيث يعيش البشر. كان الصياد بحاجة للمغادرة سريعاً لذا أرسل الزوج، الذي أثقلة المرض الشديد، زوجته الشابة لتعود كي تعيش مع الناس ويبقي هو كي يموت وحيداً. لقد حكت سفيتلانا هذه القصة لنا كقصة للحب الحقيقي، غير أننا حينما نقرأ بين السطور نجد أن قصتها كانت أيضاً تحكي عن العزلة، ربما تلك العزلة التي تأتي من كون الإنسان لا يجد من يتحدث معه بلغته الأصلية.

تركنا نرسا، تلك القرية ذات الحكايات التي طوى النسيان معظمها، يملؤنا الأسى. انطلقنا محمَّلين بهدايا من الخبز والتوت وبأشرطة الفيديو الثمينة لحكايات التوفا مع دليلنا التوفي للعودة إلى القرية الرئيسية اليجدجر Alygdzher والتي تقع على بعد ١٥ ميلاً عكس اتجاه مجرى النهر، في اتجاه طيران أسراب الغراب. كان المدق ملتويًا، غير أن عمدة القرية، وهو ألماني سيبيري مكافح، طمأننا أن الطريق يمكن أن يستغرق خمس ساعات بالعربة وهو شيء يسير. كان دليلنا شاب صغير يبلغ ٢٥ عاماً بدت عليه الرشاقه والثقة إلى حد معقول، فقد كان يقودنا من على صهوة جواده ونحن نسير على الأقدام إلى أعلى الغابات وفي أدغالها بدءًا من الثامنة صباحاً. مع اقتراب منتصف ليل هذا اليوم تعثرنا بالغابات المستنقعية وبدا علينا الإرهاق وأخذنا نعاني من الشد العضلي في الأقدام ومن لدغ الحشرات، وبدأ قائدنا يفقد الثقة، لقد أخذ كثيراً من المنعطفات الخاطئة طوال اليوم، وتعثر حصانه، وتلاشت ثقته وبدت علينا أمارات

الشرود. ومما زادنا امتعاضاً أننا أدركنا أن دليلنا قد انطلق بمسدسه بلا طلقات وبلا سكين، وهذه قمة الحماقة في غابات تعج بالدببة.

بدأ صبرنا ينفذ غير أن دليلنا كان يعطينا إجابة مختلفة في كل مرة، كنت أسأله: "كم نهر بقي أمامنا لنعبره؟ " فعند ضفة أحد الأنهار الكبرى ولعدد لا نهائي من المرات وجدته يهز رأسه مغمغماً: "لم يكن ثمة ماء هنا من قبل".كان دليلنا يعبر بمفرده النهر حاملاً أمتعتنا ويتركنا نخوض في المياه قدر استطاعتنا. خلعنا ملابسنا نحن الثلاثة حتى لم يبق علينا إلا الأحذية الطويلة والسترة المقتضبة (كنا نستغل هذه الفرصة كي ننقي ملابسنا من القطع الخشبية العالقة بها لنقع فريسة للبعوض الجائع)، كنا نحمل ملابسنا على رؤوسنا بشكل متوازن ونخوض في تيارات مائية باردة ترتفع إلى صدورنا، وكنت أجفف نفسي على الطرف الآخر من النهر وأنا ألعن دليلنا الأبله وأتعجب من جهله المطبق. أخذت أصيح فيه: "ما اسم هذا النهر اللعين، إذن؟" وكان يجيبني باقتضاب: "ربما نهر الأودا" Uda. وكنت أنفث غضبي متعجباً: كيف آن لحياة التوفا والتي كانت دائماً على ارتباط وثيق بالغابة والمساحات الخضراء الشاسعة والصيد والمواسم الزراعية أن يكون فيها رجل يافع بمثل هذا الجهل عن أماكن الأنهار الكبرى؟

لم أكن أنتظر طويلاً الإجابة عن هذا السؤال. لقد وصلنا إلى القرية في الثانية صباحاً، نرتعد وفي حالة من الجفاف. وكان آخر الأنهار التي ينبغي علينا أن نعبرها، نهر الأودا على وجه اليقين، شديد العمق. لقد كنا على الضفة الخطأ من النهر ولكن على مرأى من القرية النائمة. أوقدنا شعلة نيران وأخذنا نصيح فأيقظنا رجل المعدية الذي جاء إلينا والنوم ملء عينيه كي يأخذنا. في اليوم التالي أنفق دليلنا الثلاثين دولاراً، أجرته التي أخذها منا، على الفودكا وسقط مخموراً وهو يذيع أخبار رحلتنا التعسة في كل أنحاء القرية. وجدنا أنفسنا محل تعاطف الجميع وتمنمتهم. كان الناس

يتعجبون "كيف لكم أن تستأجروا دليلاً كهذا؟ كان الكبار يهزون رؤوسهم امتعاضاً، وقالت العمة مارتا. ك "إن شبابنا لا يعرفون غاباتهم في هذه الأيام". قضت العمة مارتا عقوداً من السنين في صيد السناجب في الغابات وفي رعي الرنة وكانت تعرف بالاسم كل رافد وتل وكهف وحجر.

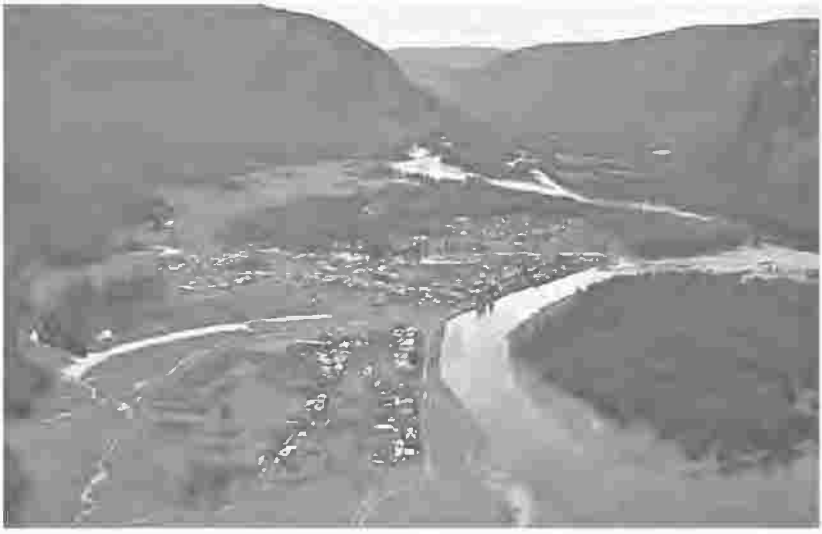

الشكل رقم (٤,١). منظر من الجو لنهر الأردا Uda وهو يفيض إلى ما وراء اليجدجر Alygdzher ، القرية الرئيسة في التوفا. تصويرتوماس هاجينبرت Thomas Hegenbart. إهداء من كونتاكت برس اميجيز.

لقد ضحكت العمة مارتا ملء شدقيها على ما أنفقناه من مال. إن فقدان واحد من أهل القرية لطريقه في الغابة كان يعني لمارتا أن عالماً قد انقلب حاله. لم يكن هذا عندها مجرد خسارة عقلية ولكنه أيضاً خسارة روحية. ففي سنوات شبابها كانت أرض التوفا مقسمة إلى أراضٍ للصيد عند الأجداد لا ترتادها إلا قبائل معينة. كانت لا توجد

تخوم بين مناطق الصيد إلا في الذاكرة فقط، وكانت حدود التخوم تنتقل من الأب إلى الابن والابنة وهكذا، وتراعى حرمتها رعاية كاملة. رغم أنه كان مسموحاً للجميع بالتجول في حرية إلا أنه لم يكن هناك صياد من أهل التوفا يعتدي على إقليم القبيلة الأخرى خوفاً من إثارة غضبها، وأيضاً تجنباً لإثارة الأرواح المحلية التي قد توقع الأذى. حينما كان التوفا يصطادون على أرض قبيلتهم كانوا يقدمون، بكل أريحية، الشاي ولحم السنجاب ولبن الرنة لآلهة النار والبحيرات والأنهار قرباناً لنجاحهم في الصيد ولنجاحهم في استغلال الأرض. لقد كانت الأرض تُعبد وكانت تمنحهم البركات لقاء ذلك[٢].

لم تكن عبادة الأرض مجرد استعارة عند التوفا لقد كان ذلك ممارسة يومية، فعند الخروج للصيد يجمع التوفا أحجار الكاستارما kastarma stones، وهى عبارة عن حصى غامض منسق تنسيقاً تاماً ويشبه النحلة الدوارة الصغيرة، أو الأطباق الطائرة أو الأزرار وتوجد على طول البحيرات وقيعان الأنهار.[٣] وكان أهل التوفا يوقرون ويجلون الأحجار كهدايا من "الكاستارما" إله أحد البحيرات المحلية. وكانت النساء تحيك هذه الأحجار كزينات على الملابس والأخراج المصنوعة من جلود ذكر الظبي. إن العثور على حجر كاستارما كان يعني منح البركة أو تحقيق أمنية وبمجرد التقاطه فإن الإله يخلف مكانه ولكن لا يكون ذلك، وفق اعتقادهم، إلا إذا كان الإله راضياً عن توازن العلاقات بشكل ملائم بين الحيوان والغابة والأرواح والناس والماء والطين. لقد اعتبر بعض شيوخ التوفا رحلتنا تلك التي ضللنا فيها الطريق نذيراً بحدوث اختلال، وهو أمر يحتاج إلى كفّارة تقدم للأرواح.

لقد أفاق دليلنا الأبله من سكره بعد ثلاثة أيام كاملة من تلك الرحلة فوجد أن حصانه قد هرب (من المفترض أن الحصان لم يعانِ في العثور على طريق عودته!). حينما عنفت

هذا الدليل، اضطر إلى الاعتراف أن آخر مرة قام فيها برحلة بين القريتين كانت منذ أربع سنوات. لقد اندهشت من توقف الناس عن المغامرة بين هاتين القريتين وهما المستعمرتان البشريتان الوحيدتان لمئات الأميال. كان الشيوخ، على النقيض، يعرفون كل قاطرة وكل ربيع وكل سلسلة جبلية معرفة تامة وكانوا يتذكرون زماناً كان فيه ظفر الصيد ورعي الرنة، بل البقاء ذاته، يعتمد على التطبيق الراشد لتلك المعرفة البيئية.

العقل في مواجهة الخارطة

مثل معظم السيبيريين الأصليين، يمم التوفيون وجوههم، في معظم الأحيان، شطر الأنهار والجبال. وكانت وحدة المسافة لديهم، وتدعى "الكوش" kösh، تشير إلى المسافة التي يمكن أن يقطعها الإنسان في اليوم الواحد ممتطياً ظهر غزال الرنة. أخطأ المراقبون الأوروبيون فهم هذه الوحدة فاعتبروها وحدة للمسافة تبلغ نحو ٢٥ كيلومتر[٤]. بالنسبة لسكان الجبال، مثل التوفا أو قبيلة الشربا sherpa في نيبال، فإن وحدات المسافة الخطية غير مجدية[٥]. فوحدة الكوش لدى التوفا هي، في الواقع، وحدة زمن وجهد، فالمسافة الفعلية التي يمكن لك أن تقطعها في اليوم على ظهر غزال الرنة تعتمد على طبيعة الأرض وسقوط الثلج وظروف أخرى.

يمتلك شيوخ التوفا معرفة حاذقة بالأنهار والجداول والروافد لحوض نهر الأودا والذي يصنع مستنقعاً في الغابة تبلغ مساحته آلاف الأميال المربعة. لقد قام أحد الروس ممن عاشوا بين التوفا لعشرات السنين بتدوين أكثر من ٦٠٠ اسم جغرافي في لغة التوفا، أكثر من نصف هذه الأسماء هي أسماء لتجمعات مائية. ولكن، مما يؤسف له، أن هذا السجل قد فقد بعد التبرع به للمتحف المحلي. غير أن التوفا أنفسهم لم يكونوا يرون أي حاجة لتدوين تلك الأسماء، فقد كانوا يحتفظون بأطلس فعلي لأرض التوفا

في رؤوسهم حيث كان ذلك أكثر نفعاً، وإن كان عرضة للضياع.

بعد اندثار حرفة رعي الرنة في الثمانينات وما تبعها من انحدار في حرفة الصيد، أخذت مغامرات التوفا في الغابات تتلاشى شيئاً فشيئاً. فلم يعد يعرف الكثير منهم مكان أرض الصيد عند الأجداد ولم يتعلموا، على الإطلاق، أسماء الأنهار والجبال الكبرى. لم يعد الشيوخ ممن يمتلكون هذه المعرفة قادرين على أن يجوبوا الغابات، بينما ظل الشباب في القرى جاهلين بها، لا يدعوهم داع إلى رعي الغزلان أو الصيد. لقد تلاشت كل هذه المعرفة، والتي تمثل أطلساً كاملاً في العقل، في خلال جيلين من الزمان فقط. يمكننا بالفعل أن نرى حوض نهر الأودا من الأقمار الصناعية أو عن طريق برنامج "جوجل الأرض" Google-earth ونحصل على أدق التفاصيل غير أن هذه الملامح الأرضية لم يعد لها جغرافية "إنسانية"، فلم يعد لها أسماء توفية. وتلك الأرض البعيدة، والتي كانت ملتقى طرق للبشر ونسجت ملامحها في قصص أهل التوفا، أصبحت مرة أخرى أرضاً بلا اسم ولا رحالة.

لا يمكن للخرائط إلا أن تسجل جزءاً من المعرفة الذهنية العقلية بالمساحات الشاسعة. فقد أسس بعض السيبيريين الأصليين وبمفردهم تقاليد تخطيطية لرسم الخرائط وذلك بحفر خرائط للأنهار أو للسماء أو الجبال على لحاء خشب البتولا أو على الخشب أو حتى بحياكة خرائط للنجوم والأنهار على ملابس الشامانيين.[٦] ونقل عن قبائل أخرى، مثل التوفا، أنهم كانوا يفتقرون إلى مفاهيم رسم الخرائط الوصفية في بواكير الاتصال مع الأوروبيين.

ومن حسن الطالع أن توافرت لدينا صورة تاريخية عن الأطلس التوفي الذهني. ففي عام ١٩٠٨م، زار مستكشف روسي، يدعى فاسيليفتش Vasilevitch، رعاة الرنة التوفيين الرُّحَّل. ويروي المستكشف كيف أن أهل التوفا تعجبوا من خرائطه البسيطة

التي تصف أرضهم، فم تكن لديهم فكرة عن الخرائط على الإطلاق. لم يكن أهل التوفا قد رسموا خرائط من قبل، سواء على الرمل أم على الثلج أم الورق. فأراهم هذا الروسي خرائطه ثم أعطاهم ورقة وقلماً وطلب منهم أن يرسموا خريطة لأرضهم. يجب أن نضع في الاعتبار هنا أنه في عام ١٩٠٨ م كان شعب قبيلة التوفا يعيش على أرض الأجداد التي لم يكن قد تركها بعد، وهذه الأرض محدودة بأماكن يمكن أن يذهبوا إليها سيراً على الأقدام أو على ظهور غزلان الرنة، ولم يكونوا يتاجرون إلا مع الشعوب الأصلية المجاورة وهم التوفانيين والسويوتيين Soyots.

لقد كانت الخرائط التي رسمها التوفيون رائعة بالنظر إلى عدم تمرسهم على هذه الوسيلة غير المألوفة لديهم. توضح الخريطة التي رسموها رؤية عامة لنهر الأودا كاملاً بروافده، غير أنها تختلف في اتجاهاتها عن الطبوغرافيا الفعلية. أولاً، نجد أن هذه الخريطة تحتوي على تفاصيل أكثر تفوق حتى الخرائط الحديثة، فبها ضعف عدد الأنهار، وأربعة أضعاف عدد الأنهار المسماة مقارنة بالخرائط الحديثة. و هذه الخريطة لم ترسم وفق ما يعرف عندنا بمقياس الرسم. إذ إنها، بدلاً من استخدام مقياس الرسم، تركز الخريطة على الأماكن المهمة. فقد تمت توسعة مركز الأرض التوفية، وفقاً لهذه الخريطة، كثيراً إلى درجة المبالغة، ورسمت مدقات للطرق شائعه الاستخدام. انكمشت، وفق الخريطة، المواقع الطرفية مقارنة بالمركز إلا أنها مع ذلك واضحة التفاصيل. والاستثناء الوحيد هنا هو رسم بحيرة تقع في الطرف البعيد من الأرض وهي صغيرة الحجم جداً على الأرض، ولكن نظراً لقيمتها الدينية (وهي تمثل حرماً لإله الماء القوي، كاستارما) فإنها رسمت على الخريطة كما لو كانت شيئاً ضخماً. وأغرب شيء نلاحظه هنا هو أن كل الثنيات والتعرجات النهرية ترسم بصورة مستقيمة تماماً، فلا نرى إلا خطوطاً مستقيمة وتفرعات منظمة على شكل الشوكة.

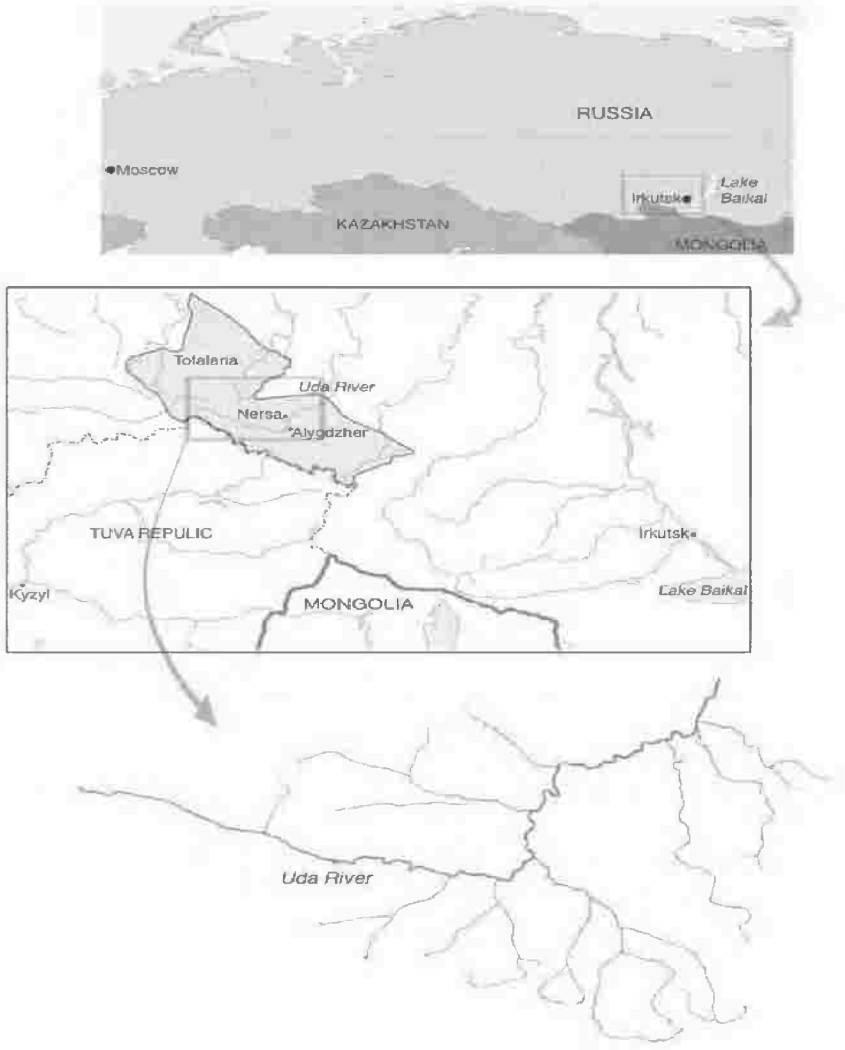

الشكل رقم (٤,٢). أوراسيا الشمالية (أعلى)، إقليم التوفا (الوسط) حوض نهر الأودا (الأسفل). رسم توضيحي بواسطة روبي هارت Robbie Hart.

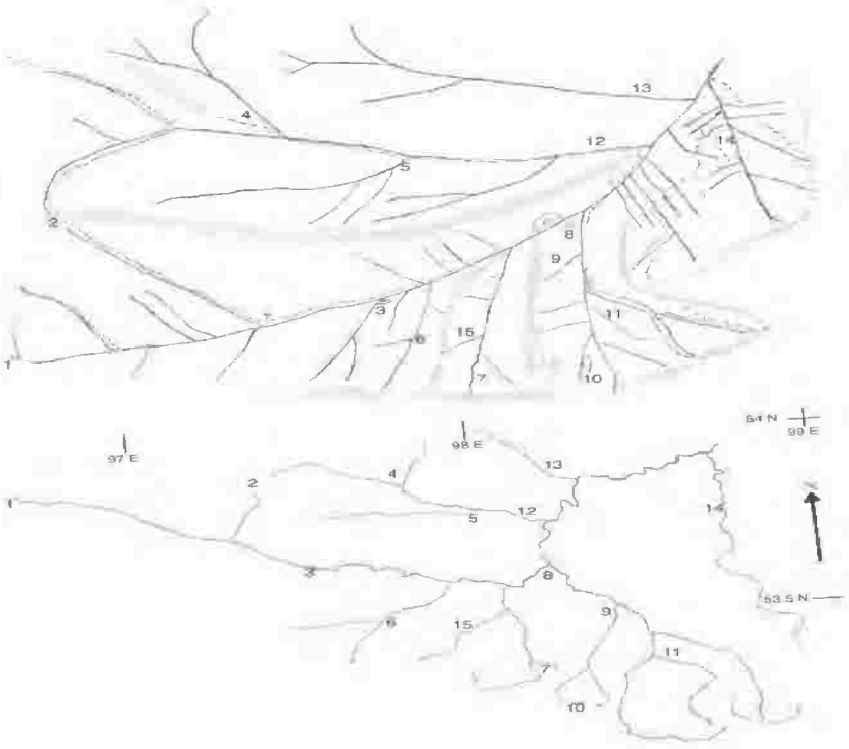

الشكل رقم (٤,٣). خريطة توفية "ساذجة" أعلى (حوالى سنة ١٩٠٨ م) توضح نظام نهر الأردا والجبال (باللون الرصاصي) وآثار المياه (الخطوط المنقطعة). وفي الأسفل خريطة جغرافية حديثة. وقد أزيلت الأسماء هنا للتوضيح. وتم ترقيم الأماكن لغرض المقارنة. صورة مقتبسة من أدلر(Adler، ١٩١٠ م)، أضاف إليها روبي هارت عناصر كارتوجرافية.

إن ما تخبرنا عنه هذه الخريطة التوفية الأصلية والتي ترجع إلى قرن من الزمان يمثل رؤية عالية الوضوح تتوافق تماماً مع الرؤية التي كان ينظر بها رعاة الرنة وجامعو الثمار السيبيريين التقليديين إلى عالمهم الذي يألفونه ؛ فقد امتدت المعرفة الطبوغرافية

عند التوفا إلى ما وراء الوصف المادي للأرض، فرسموا عالمهم الأسطوري كامتداد لعالمهم المادي. فقد تصور التوفيون الشمال على أنه بعيد جهة اليسار، وكانوا يربطون بينه وبين الشتاء والليل والعالم السفلي (الذي يسكنه الشياطين الأسطوريون)، وكان الجنوب عندهم جهة اليمين وهو مرتبط بالعالم العلوي (الآلهة) والصيف والضوء. وكان الشرق لهم هو اتجاه الأمام، وهو يرتبط بالمستقبل والصباح والربيع، أما الغرب فيتمثلونه خلفهم ويرمز إلى المساء والخريف والماضي[٧].

لقد تلاشت من الذاكرة، تقريباً، المعرفة التوفية التراثية بالمنظر الطبيعي العام landscape (حوض نهر الأودا) وما يرتبط به أسطورياً من أرض. لقد وهنت أقدام الشيوخ ممن يعرفون الأرض والعقيدة عن أن يجوبوا أرضهم ويقدمون القرابين لآلهتهم، بينما امتنع جيل الشباب عن المضي قدماً في ذلك. وفي ذات الوقت تلاشت قطعان الرنة إلى حد أنه لم تتح مهارة أو فرصة امتطاء غزلان الرنة إلا لدى القلة، ولذا لا يمكنهم الوصول إلى مناطق بعيدة من أرضهم. لقد انقطعت عملية نقل المعارف الطبوغرافية بين سكان التوفا انقطاعاً تاماً بفعل عوامل النسيان وتدهور رعي الرنة والتحول اللغوي والتغير الثقافي. لقد محيت الخارطة.

الخرائط الأصلية (الساذجة)

Na(t)ive Maps

حينما طلب المستكشفون الأوائل من الشعوب السيبيرية أن يرسموا خرائط، قاموا باستخدام أنظمة غاية في الاختلاف عما هو مستعمل، مما يوحي بأن ثقافتهم قد أثرت في تمثيلهم العقلي للأراضي الشاسعة. فقد كان اليوكاغير الجنوبيون Southern Yukaghir، على سبيل المثال، يرسمون الأنهار على شكل خطوط متوازية منحنية (الشكل رقم ٤,٤)، وكان هذا يختلف اختلافاً بيناً عن التوفان، الذين كانوا يرسمون

هذه الخطوط كخطوط مستقيمة تتفرع منها خطوط مفردة. بالطبع كان وضع القلم على الورقة مهمة مستحدثة وغير طبيعية لهؤلاء الناس ولم يكن ذلك إثراءً لما لديهم من معرفة. فقد كانت أفكارهم حول الأنهار والمناظر الطبيعية العامة تنتقل عبر وسائل متنوعة بما في ذلك الأغاني والقصص والمعتقدات الدينية ولكنها كانت تنتقل عن طريق اللغة نقلا شفهياً فحسب. كان لقبيلة اليوكاغير الجنوبية أغان متعددة تحكي سير الرحلة على طول ضفاف أحد الأنهار (عادة نهر الكوليما Kolyma). وقد كانت تلك الأغنيات، والتي جمعها اللغويون، تحكي عن التيارات النهرية والصخور المشهورة، والروافد النهرية وتوضح المعالم المهمة المتعلقة بالأساطير (مثل قصة الأخوين اللذين تحولا إلى صخور). ويشار إلى النهر في أحد تلك الأغاني على أنه واسع ومفتوح وينزلق الناس في منتصفه. وتحكي هذه الأغنية عن الروافد الصغيرة (مثل رافد الأورويك Oroek)، وكذلك عن صخرة مشهورة يطلق عليها اسم كونتك kuntuk والتي يغازلها النهر. كانت إحدى أغاني خارطة اليوكاغير الجنوبيين تقول:

دعنا نتحدث عن نهرنا. اعتدنا منذ غابر الأزمان السفر
والتزحلق في منتصف أمِّنا، كوليما.
اعتدنا السفر. كانت لأمنا كوليما أشجارٌ عديدة هنا.
تتغازل أمنا كوليما مع كونتك.
إنها تحملنا وهي تجلس على رأس الأم أورويك...
يتحرك العديد منا في منتصف النهر نحو مصبه.
إننا نتحرك بعيداً من هناك، ونرى أهلنا..

لقد اعترى أمنا، الأرض، سوء حظ هذا العام. إنه لمن سوء الطالع أن نسافر عكس التيار.

إننا ننزلق عكس التيار في وسط الأم أورويك في نهرنا المفتوح[٨].

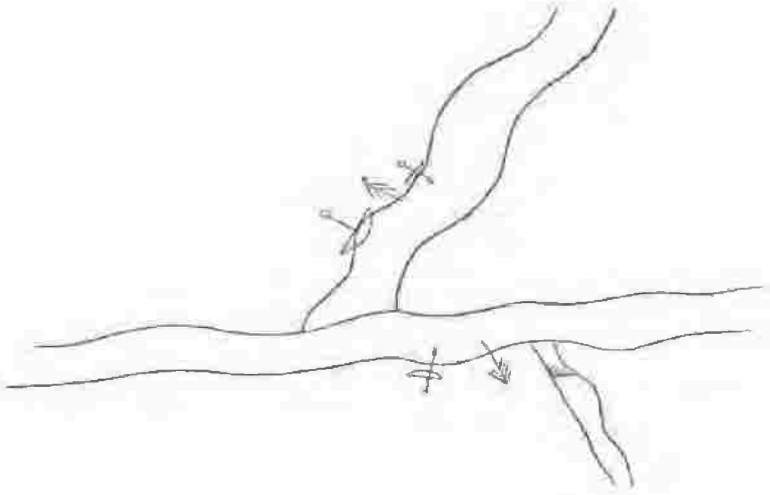

الشكل رقم (٤,٤). خريطة ساذجة لقبيلة اليوكاغير الجنوبية منذ عام ١٩٠٨م توضح التقاء نهر الكوليما (في الوسط) مع نهر الكركدن Korkodon المتعرج (في الأعلى)، وفي الصورة تظهر أيضا أشجار وسد وتلال من قوارب الكانو الخشبية. صورة منقولة عن أدلر (Adler، ١٩١٠ ص ٨٦ الشكل رقم ٢١).

تعتنق قبيلة التونجس Tungus السيبيرية رؤية مختلفة تمام الاختلاف عن الأنهار. فوفق الخرائط الساذجة التي كانت موجودة في بداية القرن، يترك التونجس نهرهم الأول، وهو نهر اليانا Yana، غير مرسوم، كفراغ لا مرئي في منتصف العالم (الشكل رقم ٤,٥)، ويرسمون بدلاً من ذلك روافده المتفرعة عنه. إن نهرهم الرئيسي هو نهر أساسي لهم وهو معروف عندهم، وهو يمثل لهم الطريق الرئيس للسير وللتنقل حتى أنهم ليسوا بحاجة إلى رسمه.

الشكل رقم (٤,٥). الخريطة البسيطة لقبيلة التنجس في نهر إلبانا (غير موجود بالرسم) وفروعه. تظهر العلامة X المستعمرات البشرية والعلامة O البحيرات. صورة منقولة عن أدلر (Adler، ١٩١٠ ص ١٠٢ الشكل رقم ٣٠).

وإلى الشرق، بعيداً، في سيبيريا كانت قبيلة النيفخ Nivkh في جزر ساخالين Sakhalin ترسم، على ما يبدو، كل ثنية ومنعطف في الأنهار (على النقيض من الاستراتيجية التي يستخدمها التوفا واليوكاغير لرسم الأنهار بخطوط مستقيمة). ولم يكن النيفخ، وهم رحالة مهرة، يقفون في رسم أنهارهم دون شاطئ البحر، إذ إنهم كانوا يمدون خطوطاً إلى داخل البحر. أما قبيلة الياكوت Yakut فقد كانوا يرسمون البحيرات وقد قطعتها الأنهار إلى نصفين (يمر النهر في منتصف البحيرة في خط مستقيم)، بينما كان التونجس يرسمون البحيرات على أنها منفصلة مادياً عن الأنهار التي تغذيها أو تستمد الماء منها فتجففها. من الجلي، إذن، أن السيبيريين تبنوا استراتيجيات ثقافية متعددة لرسم خرائط للأرض والبحيرات والأنهار.

لا يمكننا أن نعرف من أين تنبع هذه الأنهار المرسومة، من الخيال الفردي أم من التأثر بالثقافة وبالنظرة تجاه العالم. فطبقاً لما أورده العلماء الذين يدرسون الأنماط في الخرائط الأصلية (أو الساذجة) يميل الأفراد في الثقافات الأصلية إلى رسم أنهار ومناظر عامة طبيعية رسماً متسقاً و بطرق متشابهه متعارف عليها[١٠]. يعد هذ القول، بالطبع، ملاحظة إثنوجرافية وليست فرضية جدية، ولا يمكن التثبت من مصداقيتها

بين السيبيريين الأصليين بالنظر إلى أن هؤلاء السكان قد أصبحوا مشبعين بثقافات الخرائط الغربية، ومع ذلك تقدم مثل هذه الخرائط المبكرة لنا لمحات فنية عما بداخل الأطلس الذهني. فيمكن لتلك الخرائط اللامحدودة بأبعاد طبوغرافية جامدة أن تتوسع في رسم الملامح المهمة إلى أبعاد كبيرة بينما تضيق النقاط الأكثر بعداً أو الأقل بروزاً. تعد الخرائط السيبيرية الأصلية مثيرة للدهشة، لما تحتويه من تفاصيل ولما بها من ارتباط حميم مع الأرض التي تبينها.

سوف نرى في الأجزاء التالية كيف يمكن للغة أن تيسر عملية الرسم الذهني وبذا تربط البشر بالأرض.

الموهبة الطبوغرافية

كان العلماء الأوروبيون في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين يعتبرون الخرائط التي رسمها الأصليون أعمالاً بدائية معيبة. فاعتبر عدم وجود ميول bearings "حقيقية" ترتكز على الاتجاهات الأصلية cardinal directions من أوجه القصور في تلك الخرائط التي يرسمها هؤلاء "البدائيون". فما وجده هؤلاء العلماء في تلك الخرائط إنما هو اتجاهات تعتمد على الأنهار، والسواحل، والجبال. وقد بدأت قبيلة ينيسي أوستياك Yenisei Ostyak، وهي إحدى القبائل السيبيرية، تستعمل لأول مرة الاتجاهات الأصلية في سنة ١٩١٠ م وفق بعض الروايات. وحينما ظهرت لهم البوصلة "أدركوا فوائدها في الحال"[١١].

وقد علق أحد الأساتذة الذين كانوا يستكشفون شرق أفريقيا الألمانية في أوائل القرن العشرين بإعجاب على إحدى الخرائط الأصلية قائلاً "إن المسافات بين الأماكن المتعددة مسافات خاطئة، غير أنها من ناحية أخرى صائبة على نحو مدهش إذا اعتبرنا أن هذه الخرائط نتاج لعمل شخص لم ينل شيئاً من التدريب على الإطلاق[١٢]. لقد

أعلن الأستاذ الألماني أن أبناء قبيلة الماكوندي Makonde يمتلكون "غريزة طبوغرافية متميزة" وكانوا يرسمون، بكل شغف، خرائط للطرف الجنوبي من بحيرة تاناجانيقا Lake Tanganyika (التي تقع داخل ما يعرف الآن بتنزانيا). على الرغم من تحامل العلماء على أنظمة الاتجاه غير المعتمدة على الجهات الأصلية إلا أن هذا لم يمنع من الاعتراف بما تحتويه هذه الأنظمة من مهارات طبوغرافية. ففي أحد اللقاءات، طلب فلكي روسي، في إحدى رحلاته إلى القطب المتجمد سنة ١٩٠٨م، من أحد رعاة الرنة من قبيلة اليوكاغير الأصلية، ويدعى نيكولاي أنكاشان Nikolai Enkachan، أن يرسم له خريطة وقدم له أوراقاً وقلم رصاص. لقد كان ما شاهده الفلكي الروسي مثاراً لإعجابه. فقال منبهراً:

> لقد طربنا عجباً، لقد رسم كل شيء بصورة مبهرة، الأنهار، اتجاهات كافة السلاسل. لقد علتنا الدهشة إزاء هذا العرض الواضح غاية الوضوح لمناطق واسعة تبلغ مئات الفرستات versts المربعة... وفوق ذلك فإن هذا الرجل ربما لم يَرَ في حياته خريطة جغرافية، ولم تكن له كذلك أي دراية بالقراءة [١٣].

أفقي في الهملايا

حينما يطلب من الأطفال الأمريكيين أن يرسموا خرائط فإنهم يتبنون منظور عين الطائر A bird's eye view، فيصنعون المنازل والشوارع في شكل شبكات منظمة كما لو كانوا ينظرون إليها من علٍ. وقد أظهرت دراسة أجريت على أطفال الشربا sherpa في نيبال (يبلغ عدد المتحدثين في هذه اللغة أقل من ٥٠,٠٠٠ متحدث) ميل هؤلاء الأطفال الشديد إلى التأكيد على البعد العمودي vertical dimension، وهو ما يعكس بصورة أفضل المسافة الاحتكاكية frictional distance (صعوبة التحرك من A إلى B) بين النقاط، وهو ما يعكس أيضاً أهمية البعد الرأسي في التوجيه؛ فالخريطة

المســـطحة التي لا توضح إلا البعد الأفقي لا تتناســـب، بطبيعة الحال، مع الحياة في منطقة جبال الهمالايا. وكما يوضح العالم الأنثروبولوجـــي جيمس فيشـــر James Fisher: " عند تبني الرؤية من خلال منظور عين الطائر فإن نقطتين قد تبدوان قريبتين رغم أنهما في الواقع بعيدتان، لكن على مستوى رأسي وليس أفقي... فقد تكون المسافة على بعد نصف ميل فقط، غير أنها قد تكون أعلى منزلق حاد وصعب. ومن ثم فإن أي مستخدم للعربة في نيبال يعلم أن المسافة تقاس بالزمن وليس كوحدات خطية". ويمضي فيشر ليقارن الخرائط الأفقية التي يرسمها أطفال المدارس الأمريكية بتلك الخرائط ذات المنظور الرأسي التي يرسمها أطفال الشربا النيباليين، ويختتم فيشر حديثه قائلاً " إن أطفال الشربا يميلون، على هذا، إلى رسم خرائطهم لإظهار علاقة الأعلى والأدنى، متجاهلين عنصري العمق والعرض بحيث تمثل الخريطة قطاع عرضي رأسي بدلاً من تمثيلها لمنظور عين الطائر"[١٤].

لقد أمضى اللغوي روبي هارت Robbie hart وقتاً بين أبناء قبيلة بانتاوا راي Bantawa rai في شرق نيبال، حيث شاهد بنفسه كيف يمكن للغة مثل لغة البانتاوا أن تكيف نفسها للتعبير عن البعد الرأسي. في بداية الأمر، ولرجل من خارج ثقافة البانتاوا، لم يكن الباحث، في بداية الأمر، يفهم تلك العادة اللغوية لدي البانتاوا في تحديد المكان تحديداً رأسياً نسبياً. يقول هارت:

> إن الكلمات المشطوبة وعلامات الاستفهام في مدونة الميدان شاهدة على ما كنت أشعر به من حيرة عندما حاولت في بادئ الأمر أن أستنتج تعبيرات البانتاوا التي تعني "هنا وهناك". وفي نهاية الأمر، اتضح لي أن تلك الكلمات لها أشكال مختلفة، تتنوع بحسب العلو النسبي relative altitude للمكان المشار إليه. فإذا كنت تتجه من أعلى منحدر رأسي صعب في طريق ما، وتتجه إلى مستوى رأسي يرتفع عنك، يمكنك القول أنك تصعد إلى "أعلى"

على الرغم من أنك يمكن أن تكون في اتجاه هابط للأسفل. وفي ذات الوقت، يمكن لمتحدثي البانتاوا وغيرها من اللغات القريبة أن يوضحوا، أيضاً، إذا ما كان موقع شخص أو مكان أو شئ ما يشيرون إليه يوجد في مستوى أعلى من مستوى المتحدث أو أدنى منه أو على نفس مستواه. فلغة البانتاوا تمدهم بوسائل إبراز البعد الرأسي والذي يحدده مقدار الزمن المقطوع والجهد المطلوب:

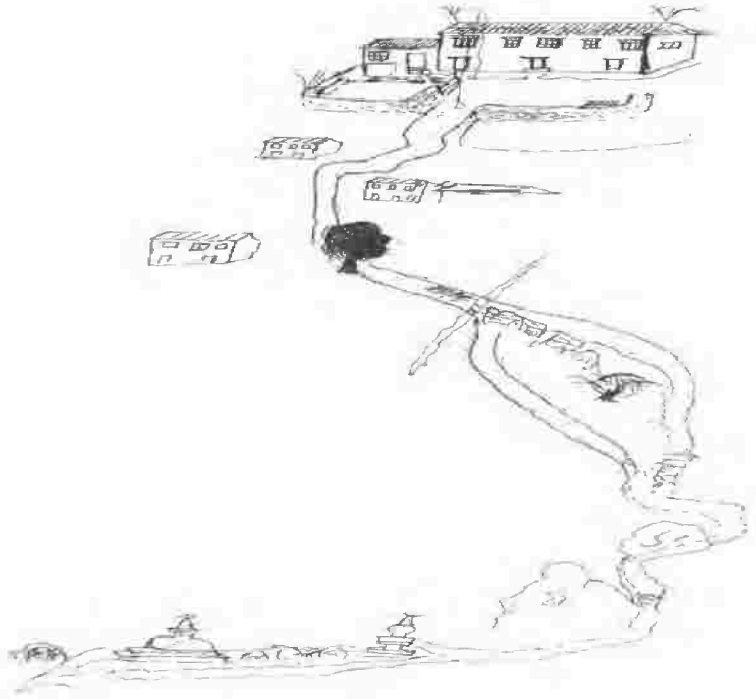

الشكل رقم (٤,٦). خريطة رسمتها آنج ريتا شربا Ang Rita Sherpa من قبيلة الشربا في نيبال وهي تعكس ميلاً ثقافياً للتعبير عن البعد الرأسي عندما يطلب رسم خرائط ذات بعدين.

إهداء من جيمس فيشر James Fisher.

فالطريق كان "مودو" modu "هناك في الأعلى"، ولكن النهر "مويو" moyu "هناك إلى أسفل". ولقد اتضح الأمر لنا وضوحاً جلياً حينما مررنا بهذه الطرق. فمع أننا قطعنا نفس المسافة تقريباً من المنزل الذي ذكرنا فيه هذه الكلمات السابقة، إلا أن المدرجات الوعرة في تلال الهملايا استغرقتنا نصف الساعة كي نتسلقها في اتجاه الطريق، بينما لم يستغرق الاتجاه الآخر (النهر) سوى عشر دقائق على الأقدام [١٥].

مناظر طبيعية منحوتة ثقافياً

إن ما يجذب انتباه الناس في هذا العالم، وما يطلقون عليه من أسماء في الطبيعة المحيطة ربما يكون متأثراً، وبشكل عميق، باللغة التي يتحدثها هؤلاء الناس. وسوف أقدم دليلاً في هذا الفصل على أن هذا الأمر يصدق على الكثير من الثقافات الأصلية. وأعني بكلمة "الأصلية"، هنا، الإشارة إلى العيش في أرض معينة لمدة تسجل فيها الذاكرة الجماعية العادات الثقافية للبقاء على هذه الأرض والتأقلم المنسجم معها. فاللغات أيضاً تتأقلم سريعاً وتغذي متحدثيها بالأدوات المتخصصة لوصف البيئة المحلية ومواردها بوحداتها وإدارتها. غير أن هذه الحركة الديناميكية ليست قاصرة على الثقافات الصغيرة والأصلية. فإذا قال أحد سكان مانهاتن "I'm cabbing it crosstown" ("أنا أجوب البلدة بالسيارة" مستعملاً السيارة كفعل)، فإن شخصاً آخر من نفس المدينة سوف يدرك ماذا يعني هذا الرجل تماماً، غير أن الغرباء قد يحتاجون وقتاً لفهم استعمال cab "سيارة أجرة" كفعل ولفهم ما تعنيه كلمة crosstown (عبر البلدة) على وجه اليقين.

الشكل رقم (٤,٧). في نيبال، يتعامل متحدثو البانتاوا وجيرانهم مع الطبوغرافيا المحليـــة المطـــيرة ببنـــاء الكباري (الصورة العليا). تغطي التلال شديدة التدحرج في منطقة بانتاوا بنباتـــات الشاي (الصورة السفلى). إهداء من من روبي هارت Robbie Hart.

تعبر اللغات عن الجغرافيا المحلية ليس في مفرداتها فحسب، ولكن، بطرق تركيبية عميقة، في قواعدها. وغالباً ما تتراكم تلك المعرفة عبر قرون عديدة، وبذا يمكن أن تمثل المصطلحات الجغرافية طبقة قديمة من طبقات المعرفة الثقافية المشفرة في اللغة. وبالطبع، فإن التغير اللغوي، أيضاً، يحدث بشكل سريع. فمن السهل، مثلاً، التفكير في مفردات جديدة مثل "blog" "مدونة على الشبكة" أو "emotican" "أيقونات عاطفية" والتي لم يبدأ استعمالها إلا في غضون السنوات الأخيرة فقط. غير أن هذه الضروب من التكيف اللغوي ما هي إلا ضروبٌ مستحدثة، ولا تنعكس فيها مئات أو آلاف السنين من التكيف مع مجال بيئي معين ولا تمثل تراكماً للحكمة التي نجدها في التعبيرات الجغرافية. سوف نستكشف، حينما ننظر إلى الثقافات الأصلية، كيف يمكن للغة أن تساعد البشر في التكيف مع المعالم العامة للطبيعة.

في جزيرة مندورو Mindoro، وهي جزيرة استوائية خضراء في وسط الفلبين، يقيم أبناء قبيلة الهانونو Hanunóo (والبالغ عددهم ١٠,٠٠٠ متحدث) أودهم بممارسة الزراعة التي تقوم على حرق الغطاء الأخضر swidden agriculture والتي يقومون فيها بإزالة قطع من الحدائق الخضراء واجتثاثها وحرقها بشكل مستمر وذلك في منحدرات وعرة في الغابات الاستوائية ويقومون بزراعة اليام yam (درب من البطاطا) والخضروات. ويغطي هذا الغطاء الأخضر الكثيف الذي ينمو سريعاً مساحات أراضٍ واسعة وحدائق بشكل متسارع، ويجب حرق مساحات جديدة من الأراضي. يقول الأنثربولوجي هارولد كونكلن Harold Conklin "في إقليم الهانونو لا توجد أرض زراعية دائمة".[١٦] وعلاوة على حرق هذه المساحات الزراعية، تتطلب الزراعة المتنقلة swidden farming مهارة خاصة في استعمال الحرق المنظم للغطاء الأخضر من أجل خلق مساحات زراعية فارغة جديدة. ومن أجل أن يوجه الهانونو أنفسهم اتجاهاً معيناً

في هذه الأحراش كثيفة النمو، فإنهم يستعملون نظاماً ميسوراً، نسبياً، للكلمات الاتجاهية على الأرض. يستعمل الهانونو، في كل الاتجاهات على الأرض، نظاماً واحداً لترميز التمايز الاتجاهي بين "أعلى الجبل" و"جهة البحر" upmountain/seaward ، من ناحية، وهو الشيء الذي نلاحظه دائماً في العديد من القبائل التي تسكن الجزر، وكذلك التمايز بين "عكس اتجاه تيار الماء" و"مع اتجاه تيار الماء" upstream/downstream.

الاتجاهات البرية عند الهانونو

الاتجاه	المعنى
ساباباو Sabābaw	فوق، ناحية الجبال، ضد التيار
سالوود Salāwud	أسفل، تحت، مع اتجاه التيار، ناحية الساحل

أما فيما يتعلق بالظواهر السماوية، يتبنى الهانونو نظاماً أكثر تعقيداً ثلاثي الاتجاه، ويقوم على اتجاه الرياح. ويوضح كونكلن ذلك قائلاً "تسمى الرياح بأسماء الاتجاهات الأصلية الستة السماوية وتعتبر نابعة منها". فكل اتجاه للرياح له اسم، ويمكن لكل فرد من أفراد الهانونو أن يوجه الآخر توجيهاً سريعاً باستعمال تلك الأسماء.

إن اتجاه الرياح هو جزء من نظام أكبر من المعرفة البيئية كما يوضح كونكلن في ذلك قائلاً "يعد اتجاه الرياح ومدة هبوبها من المؤشرات 'التقويمية' وعلامات الطقس المعروفة لدى كل أفراد الهانونو، تماماً مثل أوجه القمر، وموجات المد والجزر، و دوران النجوم وكذا، بصفة خاصة، المراحل المختلفة لنمو النبات. وفوق هذا، يفهم الهانونو العلاقات التي تربط اتجاهات الرياح الستة بالتغيرات الموسمية في الطقس فهماً دقيقاً[١٧].

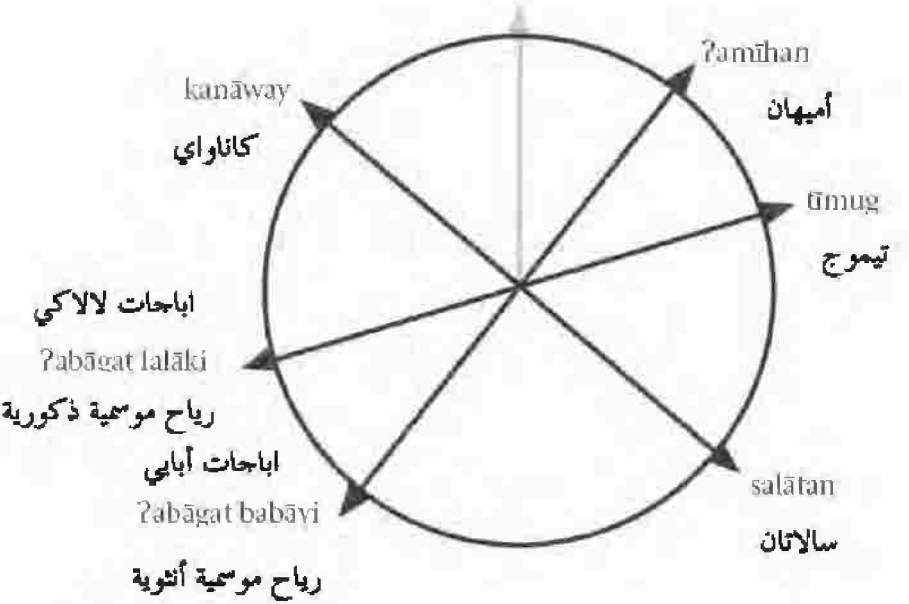

الشكل رقم (٤,٨). اتجاهات الريح عند الهانونو (يوضح اتجاه "الشمال" الإنجليزي باللون الرصاصي (الباهت) للمقارنة) مأخوذة من هارولد س. كونكلن (Harold S. Conklin، [١٩٥٧]، ١٩٧٥م).

تعتني ثقافة أخرى، ألا وهي ثقافة البدو في صحراوات الشرق الأوسط، اعتناءً كبيراً بالرياح. فبدو الأردن الرحل والذين يعيشون على رعي الأغنام والماعز لديهم أفعال للتعبير عن "الذهاب للشرق والذهاب للغرب" (وتنطق هذه الأفعال "يشرِّق" yišarrig، و"يغرِّب" yigarrib). وكما لاحظ الأنثروبولوجي بيل يانج Bill Young، فهناك رابطة مهمة بين الأبنية اللغوية واكتساب الأرزاق. فبدو الأردن يطلقون هذه الأسماء على تلك الاتجاهات؛ لأنهم يعتمدون على الأمطار الشرقية والغربية من أجل الإنتاج الرعوي. أما بدو السودان، فعلى النقيض من ذلك، فيعتمدون على رياح

الشمال والجنوب للحفاظ على ما لديهم من مراعٍ للحيوانات، فعندهم فعل للاتجاه شمالاً "يتشامل" (yitšaamil) وللاتجاه جنوباً يتيامن (yityaamin)، غير أنه لا يوجد لديهم أفعال للاتجاه غرباً ولا للاتجاه شرقاً[١٨].

تقسيم فضاءات صغيرة

يعتني سكان الجزر الذين يخرجون في مراكب شراعية أشد العناية بالرياح. فهم يتبنون إطاراً مرجعياً يختلف غاية الاختلاف عن الإطار الذي ينتهجه سكان الغابات السيبيرية. وتمد اللغات هؤلاء السكان بوسائل لوصف التيارات والرياح والمنحدرات البركانية والأنماط الطبوغرافية التي تمتاز بها الجزر (مثلاً، تعد الحركة تجاه البحر في الغالب حركة للأدنى، بينما تعد الحركة بعيداً عن البحر حركة للأعلى). تعد لولوفولي Lolovoli أحد لهجات لغات شمال شرق جزيرة أمبا North-East Ambae (يبلغ عدد متحدثيها ٥٠٠٠ متحدث) وهي واحدة من ١١٣ لغة أصلية تستخدم في فانواتو. في جزيرة أمبا الصغيرة، وهي محل لثورة بركانية كبيرة حدثت في ديسمبر ٢٠٠٥ م، توجد أكثر من طريقة للتعبير عن "يذهب". وتميز اللغة المحلية هذه الطرق المحتملة بثلاثة أفعال مختلفة. وكما هو الحال في جبال الهميلايا Himalayas، فإن الأرض في جزيرة أمبا شديدة الانحدار لذا فإن التعبير عن الحركة بمصطلحات مثل "فوق"، "تحت"، "عبر"، تحمل، إلى حد كبير، معلومات أكثر عن طبيعة "الذهاب". فمثلاً إذا طلبت والدتك أن" تذهب" إلى منزل صديق تحمل لفافة من جوز الهند، فإنك تدرك من اختيارها للفعل إذا كانت هذه المهمة عملاً يسيراً (هبوط للأسفل) أم سبباً للاختفاء والتنصل (صعود للأعلى). والأفعال الأساسية الثلاثة عند الأمبا والتي تُعبر عن الفعل "يذهب" هي "هاجي" Hage وتعني "يذهب لأعلى" go up و "فانو" vano، وتعني "يذهب عبر أو في

نفس المستوى" أو "هيفو" hivo وتعنى "يذهب لأسفل" go down. تمثل هذه الأفعال تمايزاً في الحركة وهو أمر مهم في كافة المقاييس والسياقات المختلفة. فالفعلان "هاجي" hage و "هيفو" hivo، مثلاً، يشيران، أيضاً، إلى الحركة إلى داخل البر inland وإلى اتجاه البحر seaward. ولا يعد هذا الامتداد في المعنى مفاجأة؛ إذ إنه في جزيرة أمبا والتي تشبه المخروط في شكلها، عادة ما يعتبر الذهاب إلى داخل البر هو المكافئ في المعنى للذهاب إلى "أعلى"، بينما يعتبر الذهاب صوب البحر هو المكافئ للاتجاه إلى "الأدنى". غير أن هناك معانيَ مشتقة من هذه الأفعال لا تنشأ عن هذا الارتباط البسيط بين الاتجاه و المنظر الطبيعي العام، ولكنها تنشأ من نظام ثقافي خاص لتنظيم الفضاء البيئي. فعندما نتكلم عن الحركة من مقاييس مختلفة، ينطبق التمايز بين الأعلى والأدنى على غيره من الاتجاهات البارزة المتباينة. انظر إلى استعمال الفعلان "هاجي" hage و"هيفو" hivo كما في الجدول رقم (٤,١).

إذالم يكن اتجاه الذهاب مجهولاً، (مثلما يحدث عندما نسأل "أين ذهب؟") فإنه ينبغي استعمال إما "هاجي" أو "هيفو" بغض النظر عن ضآلة التغير النسبي في الارتفاع. فمن اليسير، عندما تسير حول قرية صغيرة، أن ترى كيف يمكن للمتحدث أن يعرف بلا عنت العلاقات في الارتفاع بين الأماكن المعروفة. يمتد هذا الإطار، في الحقيقة، إلى مستويات صغيرة جداً مثل مستوى الكوخ من الداخل حينما يكون مستوياً في أرضيته. ففي هذه الحالة، يفكر المتحدث في المنحدر العام للأرض "خارج" الكوخ، ثم يستعمل حينئذ الفعل المناسب لوصف الحركات الصغرى "داخل" الكوخ لكي يقول مثلاً "ضع طبق اللحم *هاجي*" "Place the dish of meat *hage*"، و هاجي هنا تعنى "جهة البر" inland أو "إلى أعلى" uphill.

على أنه يمكننا أن نتخيل أن المنطقة التي "يسير" عليها الناس تتسع، وتصبح

تضاريس اليابسة أكثر تنوعاً، حينئذ تزداد صعوبة االمفاضلة بين استعمال "هاجي" أو "هيفو" أو "فانو".

تعامل متحدثو الأمبا مع تلك المسألة الخاصة بجزيرتهم من خلال نظام لغوي نشأ خصيصاً كي يملأ هذا الفراغ الاتصالي. فعند التعرض لموضوع التجول حول الجزيرة، فإنك تقارن الارتفاعات المعروفة للمنطقة التي تتمركز بها وكذلك الاتجاه الذي تسير إليه وعليك حينئذ أن تستوعب الجهات الأخرى للمنظر العام في الجزيرة وتساعد وسيلة النقل في تحديد الأفعال التي تتناسب مع الموقف. يظهر شكل ٤,٩ مخططاً لتلك العملية الصعبة في اتخاذ القرار.

فإذا بدأت في الطرف العلوي من المخطط وفي ذهنك الرؤية الأساسية لاتجاه البحر في مقابل البر فإنه يمكنك حينئذ أن تنطلق بمحاذاه الطرق الموضحة بالأسهم كي تختار الفعل الذي تقرر استخدامه.

الجدول رقم (٤,١). التوسع في مصطلحات الاتجاهات في جزيرة أمبا بفانواتو.

أصغر	مقياس الحركة ⟷	أكبر
هاجي hage "فوق" "جهة البر"	الجنوب الشرقي عند السفر إلى الجزر الأخرى	إلى الدول الأخرى غير فانواتو
هيفو Hivo "أسفل" "جهة البحر"	الشمال الغربي عند السفر إلى الجزر الأخرى	إلى فانواتو من الدول الأخرى

عند السفر من الساحل أو إليه يستخدم المتحدثون "هيفو" hivo لوصف الحركة في اتجاه جنوب غرب، و "هاجي" للحركة جهة شمال شرق، وهذا التضاد ليس اعتباطياً ولا مبنياً على أساس المجالات المغناطيسية، غير أنه يتوافق مع التقسيم المنطقي

للجزيرة حول المحور الذي يشطرها إلى قسمين. وتستخدم الأفعال "هاجي" و "هيفو" و "فانو" vano أيضاً للتفرقة بين أنماط التنقل بين الجزر. غير أنه في هذا الإطار، تشير الأفعال إلى الحركة الاتجاهية والتي تختلف عن فعل "الذهاب" الذي كنا نصفه عند الحديث عن الحركة الداخلية (أى داخل القرية) أو الحركة داخل جزيرة واحدة.

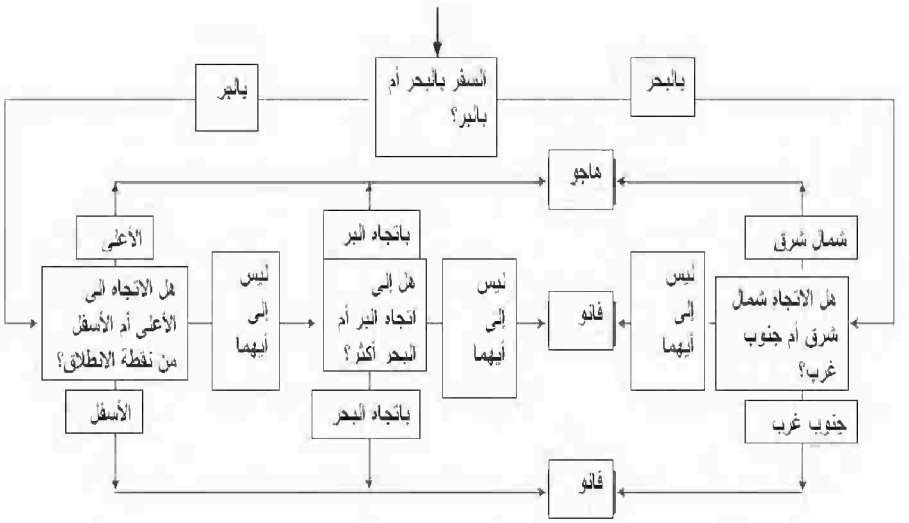

الشكل رقم (٤,٩). نموذج لتصميم قرار يمثل كيف يتخذ القراربشأن استعمال الفعل الاتجاهي في اللولوفولي.

بمقارنة تلك السياقات المختلفة يتضح لنا أن الفعلان "هاجي" و "هيفو"، من الناحية الدلالية، يصفان أنماطاً متباينة من الحركة، بينما يصف "فانو" الحركة التي لا يمكن تصنيفها آنياً على أنها "هاجي" أو "هيفو". فعند السفر في داخل الجزيرة، وعندما يكون الارتفاع النسبي أو الحركة في اتجاه البحر أو بعيداً عنه غير بارزين، فإن المحور الذي يحدد اختيار "هاجي" أو "هيفو" هو التقسيم الطولى للجزيرة، بينما يمثل الفعل

"فانو" الحركة عبر الحاجز البركاني في كلا الاتجاهين.

عندما يسافر اللولوفولي في قوارب الكانو بين الجزر فإن الارتفاع النسبي أو الاحتكام إلى التمايز بين اتجاه البر واتجاه البحر يعد أمراً غير مفيد. فيتحدد استخدام "هاجي" أو "هيفو" حسب اتجاه الرياح السائدة. ومثل مكابدة الصعود إلى مكان مرتفع أوالهبوط منه مع حمل ثقيل، فإن تحديد اتجاه الإبحار بالنسبة للرياح يخبرنا عن طبيعة ما تحمله الرحلة من مشقة.

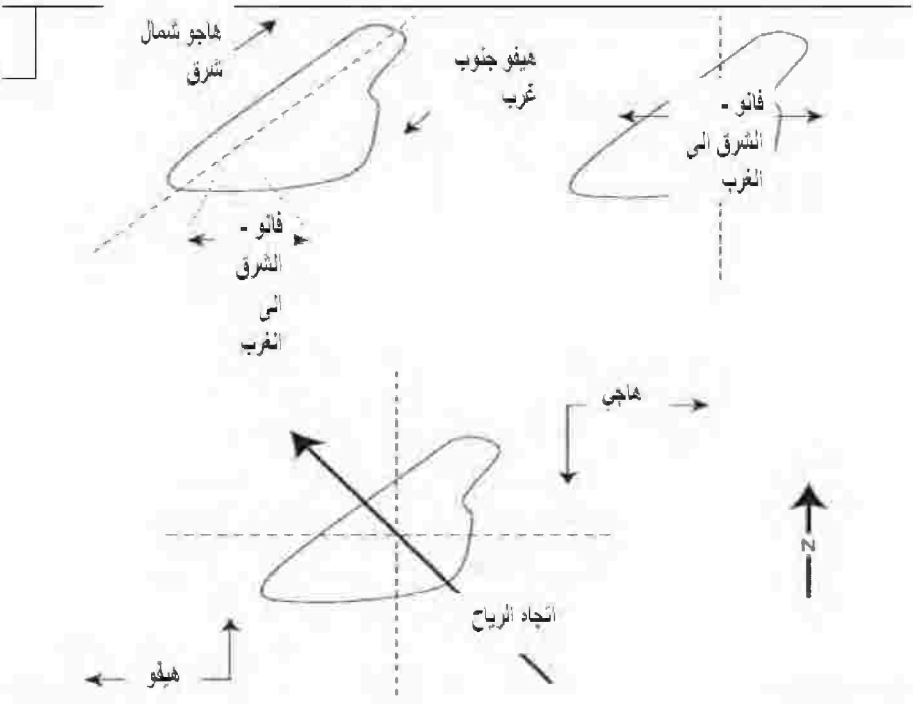

الشكل رقم (٤,١٠). الأفعال الاتجاهية في اللولوفولي التي تستخدم لوصف رحلات القارب حول الجزيرة أو المرتفعات عبر محورها (في الأعلى) والرحلات الشراعية (في الأسفل).

بمقارنة سياقات الحركة نجد أن رحلات "هاجي" هي رحلات عسيرة (الاتجاه إلى أعلى أو ضد اتجاه الرياح العكسية) بينما تكون رحلات "هيفو" رحلات يسيرة (حيث الاتجاه للأدنى والرياح مواتية). وتجدر الإشارة إلى أن الحالة الوحيدة التي يستعمل فيها الفعل "فانو" للسفر بين الجزر، هي حالة السفر إلى مالاكولا Malakula، وهى جزيرة في الاتجاه الجنوبي الغربي مباشرة من جزيرة أمبا والتي تتعامد مع اتجاه الرياح. وتكون الرحلات من مالاكولا وإليها رحلات ميسرة إذ يكون الإبحار دائماً في اتجاه متعامد مع الرياح [١٩].

تؤثر الثقافة تأثيراً عظيماً في تركيب اللغة فإذا عرف أن الحركة هى حركة "هاجي" أو "هيفو" فلابد من تحديد ذلك في الجملة حتى يمكن بناؤها بناءً سليماً من الناحية القواعدية.

ترمِّز الأفعال الاتجاهية في لولوفولي طبقة أخرى من الوصف المكاني، علاوة على دورها الأساسيِّ في تحديد الاتجاه المطلق. فبإضافة اللواحق، توجَّه الحركة التي تمثل الاتجاهات أعلى/ أدنى/ عبر ناحية المتحدث أو الشيء المراد أو بعيداً عنهم، في اتجاه المخاطب. تشير اللاحقة التي تعني "في اتجاه المخاطب"، أيضاً، إلى الحركة إلى أماكن في الماضي أو المستقبل حيث كان المتحدث، أو سوف يكون، متواجداً فيها. وإذا أخذنا الماضي أو المستقبل أو إذا أخذنا الأمرين معاً، فإن أى استخدام لحركة "الذهاب" في لولوفولى يجب أن يتضمن في تركيبه ما يدل على كل من الحركة المطلقة ومكان المتحدث أو الشيء المتحدَّث عنه. تعطي هذه التوليفة للمعلومات المكانية تسعة أفعال متمايزة بالإضافة إلى مزيج من اللواحق، كما يتضح من الجدول رقم (٤,٢)[٢٠].

إذا ما تحدثت أنا وأنت لغة اللولوفولي وقمت باستخدام كلمة فانو- اتو -vano atu في جملة ما، فإنك تفهم أن شيئاً ما أو شخصاً ما يتحرك بصورة مستوية عبر البر

ناحيتك (المخاطب) أو أن هذا الشيء أو الشخص يسافر بحراً إلى مكانك غير المحدد على جزيرة مالاكولا. فإذا قمت باستخدام كلمة "هيفو ماي" hivo-mai فإنني أفهم من ذلك أن شيئا ما كان يتحرك باتجاهي وإلى الأسفل أو ناحية البحر (أو ربما كلا الاتجاهين).

رعاة ثور التبت والخرائط الذهنية

أما و قد عدنا من جنوب المحيط الهادي إلى حيث بدأنا في أواسط سيبريا، دعنا ننظر إلى طريقة أخرى تنفذ بها المعرفة بالمنظر الطبيعي العام landscape إلى اللغة وتنفذ بها اللغة إلى المنظر الطبيعي العام؛ ففي السلاسل الجبلية لجنوب سيبريا، يقوم بدو التوفان الرحل برعي ثيران التبت والجمال والماعز والأغنام. ولا يستعمل البدو الرحل الخرائط ولا البوصلات ولا وسائل تحديد المواقع العامة. ربما يسير البدو خلال الهجرات طوال العام لمسافات تبلغ مئات الأميال المربعة، يعبرون خلالها العديد من الأنهار والجداول ويمرون بسلاسل جبلية ووديان لا تحصى، يطاردون خلالها الماعز الضال أو الخيل في الوديان البعيدة ويقفزون فوق مستوى الأشجار ليصطادوا حيوان المرموط Marmot والذئاب.

يعتمد مقدار ما تقوم به الأسرة البدوية من تجوال في العام الواحد، على نحو الدقة، على أنواع الحيوانات التي يقومون بتربيتها. فيتبع رعاة الماشية والأغنام والماعز دورة موسمية معتادة تقود الحيوانات إلى أفضل الحشائش وتقود البدو إلى سلسلة من أربعة إلى ستة مواقع للخيام. فرعاة ثور التبت يهاجرون مسافات أطول وتتجول قطعانهم إلى أراضٍ أبعد سعياً وراء مراعٍ أكثر خصوبة وأكثر برودة وقت الصيف. وعلى النقيض من قطعان الأغنام والماعز لا تعود قطعان ثيران التبت إلى مخيم المرعى ليلاً. ويقوم بحراسة تلك القطعان الشباب، رعاة الثيران، الذين يعملون في نوبات

حراسة تتبدل كل يومين، فيمتطون صهوة الخيل من مكان خيامهم وينامون في الحقول. تنشيء هذه الحركة الدائبة تآلفاً حميمياً مع مظاهر الطبيعة العامة وبفضل ما يكتسبه هؤلاء الرعاة، ومن المفترض الثيران كذلك، من معرفة، فإنهم لا يضلون طريقهم أبداً. لقد قضيت وقتاً طويلاً أتجاذب أطراف الحديث مع رعاة الثيران التوفانيين كي أفهم كيف يمكن بناء هذه المعرفة وتفعيلها في الحياة. سوف أصف لكم في الفقرات التالية صندوق أدوات المعرفة الطبوغرافية لدى التوفانيين.

عندما كنت أمتطي الثيران أو أتجول مع بدو التوفان، لاحظت أنهم، تقريبًا، وبصفة دائمة، يتعرفون حتى على أدق تفاصيل المنظر الطبيعي العام حولهم. فهم يطلقون اسماً على كل بروز مرئي في ذروة السلسلة الجبلية. فيطلقون أسماء مثل "الرأس الأبيض" whitehead، "قمة الجليد" ice top، "الرأس المخروطية الزرقاء" blue pointy، "الأخت السوداء" black sister "رأس الدب" bear head وهكذا. حتى أصغر نبع ماء طبيعي أو جدول مائي يمكن أن يكون له اسم، وإن لم يكن له اسم يمكن أن يسمى باسم النهر الذي يصب فيه.

يمتلأ أي منظر طبيعي يألفه التوفان بأماكن ذات أسماء مثيرة. و هذا الأمر من شأنه أن يمكّن التوفان من التحدث بصورة يسيرة و بشكل محدد عن الأماكن التي كانوا بها والأماكن التي تذهب إليها قطعانهم أو محل هجرة الجيران. وبدلاً من إعطاء أسماء أعلام لكل مكون من مكونات المنظر الطبيعي، فإن التوفان، في بعض الأحيان، يخلعون على هذا المنظر الطبيعي صفات الكائن الحي، بأن يتخيلوا، مثلاً، البروز الجبلية على أنها أعضاء من جسم دب أو شخص نائم. ويعد هذا النظام الذي تنفرد به هذه الثقافة، إلى حد كبير، ذا فائدة كبيرة في حفظ مكونات هذا المنظر الطبيعي العام بتعقيداته واستخدامه في تحديد الاتجاه. لا تشبه هذه الأشكال التي يراها التوفانيون

شبيهة بالإنسان أو الحيوان نموذج "عجوز الجبال" Old man of the mountains الشهير لدى نيوهامبشر ولا نموذج الرؤوس الرئاسية العملاقة giant presidential heads لجبل راشمور MT. Rushmore. فالمناظر الطبيعية عند التوفان تكون أكثر تجريداً وغير واضحة للملاحظ العابر الغريب عن المكان الذي لا يتوافر له نفس المنظور الثقافي [٢١] .

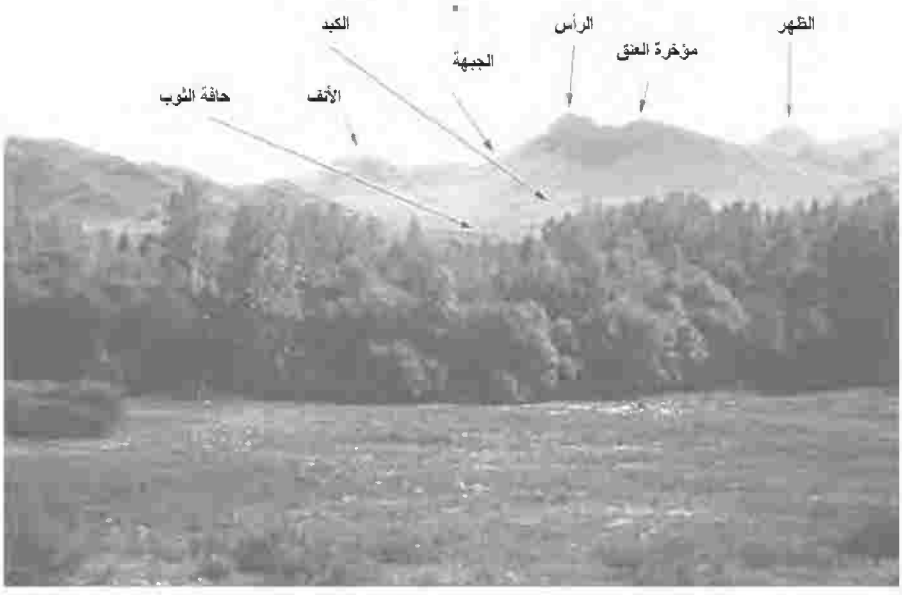

الشكل رقم (٤,١١). التسمية التوفانية التي تمثل الصورة الأنثروبولوجية للملامح الجبلية. إهداء من تيودور ليفين Theodore Levin. المعلومات الطبوغرافية مقتبسة من أناتولي كولار Anatog Kuular .

يستخدم التوفانيون في تسمية المناظر الطبيعية نظاماً معقداً من المعتقدات الأسطورية والدينية، فكثير من قمم الجبال والسلاسل الجبلية والتكوينات المائية والينابيع الطبيعية تعد مقدسة، ويعتقد أن الأرواح تسكنها. فالممرات الجبلية والتي تمثل

النقطة التي يصل عندها مدق أو طريق ما إلى القمة قبل أن يهبط تعد ذات قيمة عظمى. فلا ينبغي على شخص أن يمر بها دون أن يترك قرباناً. ومن أمثلة القرابين التي تقدم استرضاءً للروح المحلية وضماناً للمرور الآمن قطع الأقمشة المربوطة بفرع شجرة أو قطع حجرية موضوعة فوق نصب، أو قطعة من الحلوى موضوعة أسفل نصب. إن الذهاب إلى ينبوع ماء أو المرور بممر دون أن تقدم قرباناً يعني المغامرة باستجلاب غضب الروح المحلية القادرة على إيقاع الضرر إذا غضبت.

يساعد وجود هذه الأرواح و ما يسمى باسمها من أماكن في تنظيم المنظر الطبيعي العام والتحكم في كيفية التعامل معه تعاملاً جدياً في إطار الذاكرة الجماعية[٢٢].

حواس الاتجاه

تعد مهارة تحديد الاتجاه بدقة إحدى المهارات التي يشترك فيها عديد من البشر ممن يرتبطون ارتباطاً حميماً بأرضهم. فلا يضل بدو التوفان الطريق أبداً حتى إذا امتطوا خيولهم بعيداً لبضع ساعات أو قطعوا كيلومترات على الأقدام. يقوم الإحساس بالاتجاه لدى التوفان كما روى لي العديد من الصيادين والرعاة المهرة في مقابلاتي معهم على نظامين متمايزين. أولاً، هناك المفاتيح الطبيعية؛ فيلاحظ الصيادون التوفانيون ملاحظة حاذقة جانب الشجرة الذي تنمو عليه الطحالب، و جوانب منحدر تل النمل الأكثر وعورة، والطريق الذي توجه إليه العناكب شباكها، وجانب جحر المرموط الذي تتجمع عليه القاذورات الناتجة عن الحفر، بل ويمكنهم أن يتعرفوا على منحدرات خفية من الأرض ناتجة عن مسارات خلفتها قطرات المطر المتساقطة في التراب. تعطي مثل هذه المؤشرات الصغيرة مفاتيحاً حول الاتجاهات الرئيسة والطبوغرافيا المحلية ويمكن أن تتخذ أي من هذه المؤشرات كنقاط مرجعية إذا لم تظهر الشمس، وحتى في حال ظهورها، للتأكد من دقة الاتجاهات العامة أو استنباط

معلومات حول التغيرات المستقبلية للفصول أو التنبؤ بالطقس.

ثانياً، يتفاعل التوفان مع مظاهر الطبيعة من خلال الحواس الأخرى غير حاسة البصر، لاسيما من خلال لغتهم. فيستغل التوفان أدوات التوازن السمعي داخل الأذن كي يتيقنوا من مدى انحدار الأرض تحت أقدامهم، فهم يستخدمون حاسة السمع من أجل التعرف على الفضاء السمعي للبيئة المحيطة. وهم لا يعرفون جيداً تركيبة الأرض بناءً على ملمسها فحسب، ولكن على صدى الأصوات الناتجة عن السير فوقها. فتحتوي لغة التوفان على مجموعة وافرة من المفردات شديدة الإبداع التي تصف أصواتاً معينة يحدثها الحيوان والإنسان في الغابة. فمثلاً كلمة "تشيزِر- تشيزِر" - chyzyr chyzyr يمكن ترجمتها على أنها "صوت قمم الأشجار وهي تتحرك أوتتمايل أوتتصدع أو تطقطق من كشط الدببة لها بمخالبها أو من حك ظهورها بها". أما كلمة "دالدِر" daldyr فهي ترمز إلى "صوت حوافر الخيول الكبيرة" بينما كلمة "ديلدر" dyldyr تشير إلى "رفرفة أجنحة الطائر الكبير"، وتشير كلمة كلمة "كويورت" koyurt إلى صوت "الأقدام البشرية تطأ الثلج السميك"[٢٣].

يبدي التوفان اهتماماً كبيراً بالكلمات التي تصف أصوات الحيوانات والماء والصدى، كما أن لديهم مستودعاً غنياً من الكلمات؛ فالكلمتان "هير هير" "hir-hir" تشيران إلى صوت طقطقة النيران في المخيم أو صوت الحفيف المفاجئ لأجنحة طائر الطيهوج في الحشائش. أما كلمة "شولور" shülür، فهي تمثل صوت الماء وهو يصب في نهر جاف قريب، أو صوت المخاط وهو يندفع خارج الأنف. ولا تقدم اللغة التوفانية كلمات عديدة سابقة التجهيز كهذه فحسب، بل إنها تمنح المتحدثين بها الأدوات اللازمة لصياغة كلمات محاكاة صوتية onomatopoetic words جديدة في الحال. (اقرأ المزيد عن هذا الموضوع في الفصل السابع).

غالباً ما تشير أسماء الأماكن في التوفا إلى خصائص أكوستية (لغوية فيزيائية) تثيرها تلك الأماكن، سواء أكانت تلك الخصائص نابعة من طبيعة تلك الأماكن في ذاتها (صوت بقبقة الماء في الغدير brook burbling) أو ناشئة عن التدخل الإنساني والحيواني (صوت حوافر الخيل وهي تحدث جلبة فوق الصخور المفككة مما يسبب انزلاقاً صخرياً خفيفاً). وكما لاحظ عالم الموسيقى البيئية تيد ليفين Ted Levin فإن التقاليد الموسيقية التوفانية للغناء الحلقي Throat-singing (والذي يطلق عليه أيضاً اسم الغناء عالي النغمة overtone singing) تنشأ في بعض الأحيان من الاهتمام الشديد بأصوات البيئة المحيطة ومن الخصائص الأكوستية (الصوتية) للمنظر الطبيعي[٢٤]. وهكذا ترتبط معرفة التوفان البدو للمنظر الطبيعي المادي بعالم واسع من المعارف البيئية والبيولوجية والجمالية والدينية، ويتم التعبير عن كل ذلك باستعمال اللغة، كما تقدم هذه المعرفة تقنية راسخة من أجل البقاء.

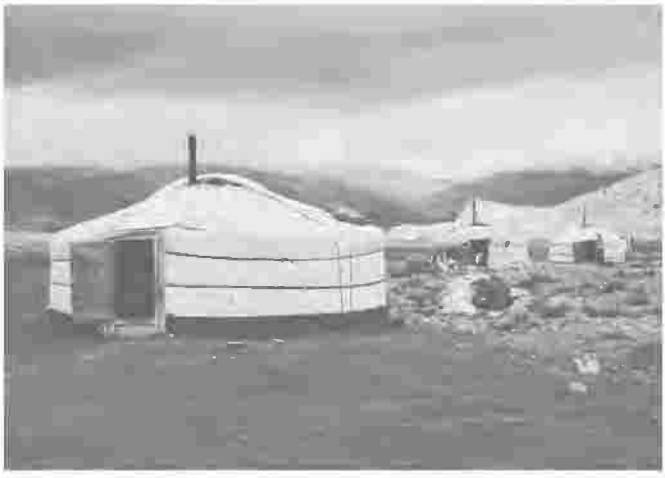

الشكل رقم (٤,١٢). التخييم المونتشاكي التوفاني في غرب منغوليا، ٢٠٠٤م. إهداء من كيلي ريتشاردسون Kelly Richardson.

المهارة ثالثة من مهارات الاتجاه عند التوفان هى مهارة نقل المعارف الجغرافية، والتي تتم عبر الأغاني والقصص والعديد من المحادثات اليومية. فالتوفان الرحل يتحدثون كثيراً عن الأماكن التي زاروها وعن أماكن تجوال القطعان وأماكن تواجد الجيران. لقد اندهشت عند زيارة بدو التوفان في منغوليا، عام ٢٠٠٠م، ٢٠٠٢م، حين وجدت أن مضيفيي كانوا دائما على علم بأماكن إقامة أصدقائهم المهاجرين وأقاربهم الذين يبعدون عنهم بأميال على وجه الدقة.

يهاجر البدو الرحل بشكل متوقع شبه دوري، ويتحكم في ذلك عوامل مختلفة مثل حالة كلأ المرعى، وتساقط الأمطار، وحالة الطقس، وصحة الحيوانات وهكذا. في عام ٢٠٠٢م، عدت إلى نفس المكان، نهر سنيكي snakey river، والذي كنت قد قمت بزيارته في أحد الرحلات في يونيو ٢٠٠٠ م. وصلت في نفس التاريخ في يونيو وكنت أشعر ببعض الثقة أن الأصدقاء الذين زرتهم في سنة ٢٠٠٠ م في نفس هذا المكان يمكن أن يكونوا على مقربة من المكان، لكن اتضح لي أن أصدقائي ما عادوا يعيشون في نفس المكان، غير أن قاطني المخيم هناك يعرفون على وجه الدقة محل أصدقائي. فقد أخبروني أنهم هناك "على المنحدر الأعلى للضفة الجنوبية لشوكة النهر الأسود" black river fork. وأخبروني أن "النهر في حالة المد العالي فلا يمكن عبوره في هذه اللحظة وسيعودون خلال ثلاثة أيام إلى 'المرج النَّدِيّ' wet meadow. إن كلا هذين المكانين المشار إليهما يبعدان بما يزيد عن ٣٠ كيلومتر من الموقع الذي نقف فيه من الناحية الأخرى لنهر يغمره الفيضان.

وباستخدام أدوات لا تزيد في تطورها عن الخيول والنظارات المكبرة والأحاديث المرسلة، نجح التوفان في هذا المجتمع المتآلف في تقصي أماكن عشرات العائلات، على وجه الدقة، وتحركات قطعانها وأوقات هجراتها. حين أستفسر في أى وقت من

الأوقات عن مكان إقامة أى فرد، تقريبا، من أفراد هذا المجتمع البالغ ١٢٠٠ نسمة أو تاريخ هجرته، يجيبني الناس بثقة متناهية. وكان الناس يقومون بكل هذا الاستدعاء عن طريق الذاكرة وعن طريق المراقبات اليومية من خلال المنظار المكبر، ويتناقل أحاديث الهجرة العديدة في محادثاتهم و باتباع نظام خصب في وسم الأشياء وبتوزيع المعلومات بين أفراد المجتمع وعبر مجالات معرفية متعددة (دينية، جمالية، صوتية، لغوية).

الشكل رقم (٤,١٣). أحد رعاة ثيران الياك المونتشاك التوفانيين في غرب منغوليا، ٢٠٠٤ إهداء من كيلي ريتشاردسون Kelly Richardson.

تمضي صعوبة نظام التسمية الطبوغرافي عند التوفان إلى ما وراء الأسماء، لتمتد إلى داخل قواعد اللغة ذاتها، كما نراه في الأفعال، على سبيل المثال. يعيش التوفان في أرض تعد المساحات المستوية بها أمرًا غير مألوف. وتنحدر كل بقعة من الأرض تقريباً في اتجاه أو آخر. وتصنع تلك التضاريس نظاماً مهمًّا آخر يستعمله التوفانيون في تحديد الاتجاه، ألا وهو استخدام اتجاهات ينابيع وتيارات المياه في الأنهار. فلغة التوفان بها كلمة عامة للفعل "يذهب" go، غير أنها نادراً ما تستعمل. فالتوفانيون، في أغلب الأحيان، يستعملون فعلاً يدل على الطريق path verb، مثل الفعل "تشوكتا" čokta "يسير عكس اتجاه النهر" go upstream أو "بات" bàt "يسير مع اتجاه النهر" go downstream، أو، في بعض الأحوال، "كيس" kes "يسير عبر التيار" go cross stream. فنادراً ما نسمع "إنني ذاهب إلى كيزل Kyzyl (عاصمة التوفا)" ولكن نسمع "أنا ذاهب في اتجاه عكس تيار النهر" أو" أنا ذاهب في اتجاه تيار النهر" إلى كيزل. يتطلب الاستعمال الصحيح لأفعال "الطريق" وعياً دائماً بجداول الأنهار القريبة وبالأنظمة النهرية واتجاه سيرها.

يمكن تمثيل هذه المعرفة بشكل منظومي من خلال تصميم رسم القرار (الشكل رقم ٤,١٤) وإذا ما بدأنا من الطرف الأيسر، يمكن للمتحدث أن يتتبع طريقاً لقراره في اختيار الفعل المناسب لكلمة "يذهب" في أي موقف. إذا كان الموقف الطبوغرافي غير معروف في لحظة ما فإن المتحدث يمكن أن يلجأ إلى الكلمات العامة للفعل يذهب go وهو الفعل "بار" bar (أي يذهب على الأقدام) أو تشور čor (أي يذهب على ظهر الخيل أو بالسيارة). غير أنه وفق العادات اللغوية للتوفا تفضل أفعال الطريق ذات التوجه الطبوغرافي لمحتواها المعلوماتي الثري.

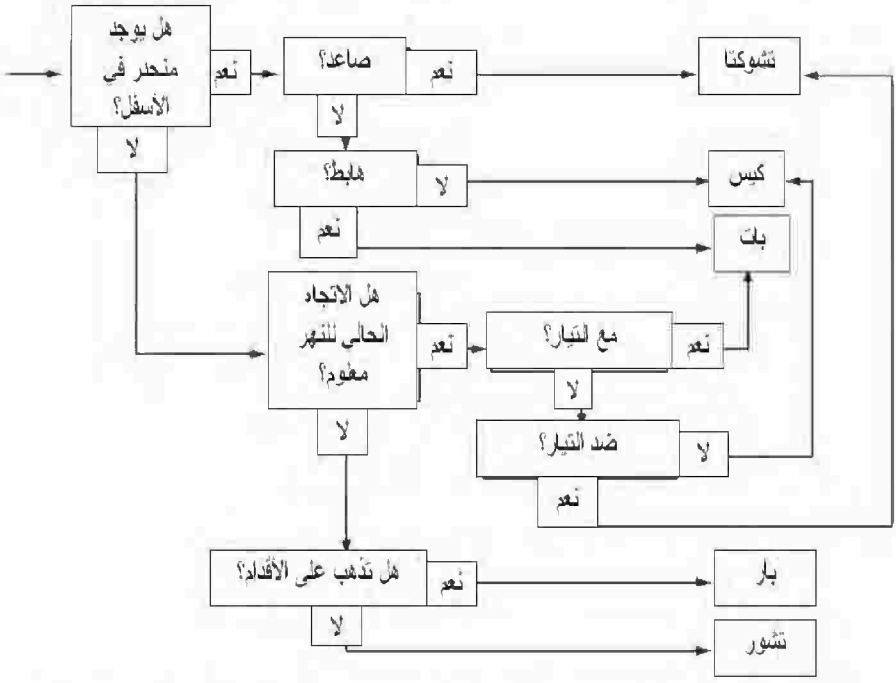

الشكل رقم (٤,١٤). رسم توضيحي لعملية اتخاذ القرار إزاء اختيار الكلمة التوفانية المناسبة التي تعني "يذهب" go.

يعد التوجه التوفاني المرتكز على النهر توجهاً مغرقاً في المحلية، مما يؤدى إلى ارتباك لدى البعض (من أمثالي) الذين يعرفون اللغة ولكن ليس لديهم دراية بالأنهار القريبة. عندما زرت قرية أريج أوزوو Aryg ilzüü في عام ١٩٩٨، كنت أسير بمحاذاة الطريق الطيني الرئيس بحثاً عن منزل صديق. وعندما سألت فتاة من المنطقة عن الاتجاهات قالت، وهي تشير جهة الغرب، "اذهب أبعد قليلاً عكس اتجاه النهر، إنه البيت الأزرق" توجهت لها بالشكر ومضيت غرباً، وبعد مئات الياردات، وبمحاذاة الطريق، أشارت سيدة أخرى إلى الغرب مرة ثانية ولكنها قالت بنبرة تأكيدية "اذهب

مع اتجاه النهر". إن الاختلاف الجوهري هنا يكمن في أن كل سيدة من السيدتين كانت تشير إلى نهر لا مرأى خلف ظهرها كنقطة توجيه لها. فقد كانت السيدة الأولى تقف وظهرها جهة نهر ينيسي Yinisei الكبير، والذي يقع على بعد ١٠٥ كيلومتراً جهة الشمال وبعيداً عن مرمى البصر، فوق سلسلة جبلية ولكنه معروف للجميع، بينما كانت الثانية تقف وظهرها تجاه النهر الأقرب وهو نهر هولس Hüüls الصغير (جدول مائي، في الواقع) والذي يجري صوب الشرق في غابة كثيفة على بعد أربعة أميال جنوب القرية.

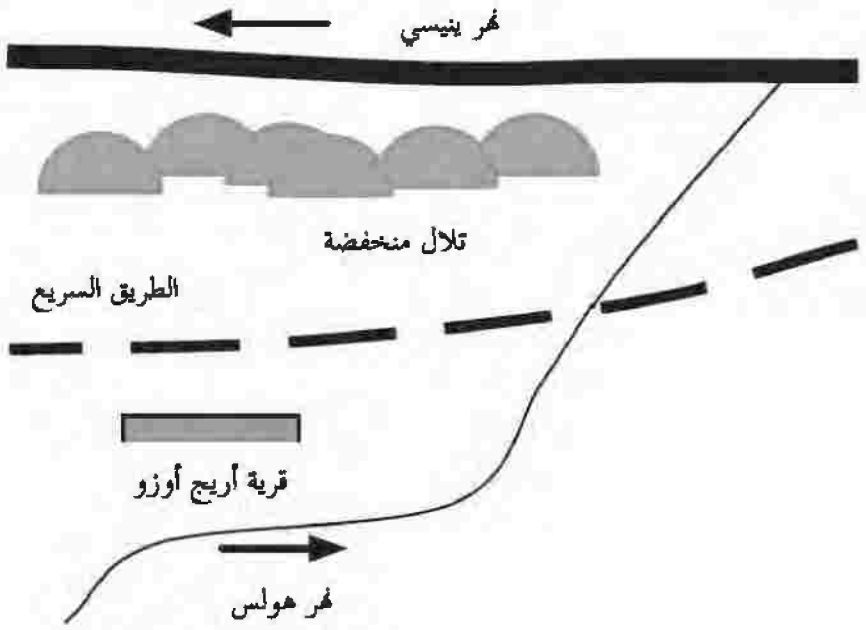

الشكل رقم (٤,١٢). نظام النهرين في أريج أوزو في وسط التوفا.

إن جهلي في هذه الحالة، (كشخص لا ينتمي لهذا المكان ولا يتحدث لغته كلغة أصلية) إنما يكمن في عدم معرفتي بالأنظمة النهرية المتبعة في ذلك المكان (ومعرفتي بذلك لم تكن تجدي) وعدم قدرتي على فهم المفاتيح الخفية للأوضاع الجسدية للمتحدث والتي يُفهَم النظام النهري بالإشارة إليها.

لقد سعدت حين وجدت أن القرويين الكسالى قد امتلكوا نظاماً من الأفعال الاتجاهية المتوافقة مع تيار النهر والتي تطورت كي توافق حضارة بدوية محضة. ولكني لاحظت أيضاً أن كثيراً من توفان الحضر، والذين يعيشون في العاصمة كيزل، قد استعملوا نظام الاتجاه النهري ولكن ليس في كل الأحوال. ومع أن نهر بنيسيي يسير إلى اتجاه الجنوب عبر كيزل ويعلم كل فرد اتجاه تياراته إلا أن توفان الحضر يستخدمون الفعل "يذهب" go فقط، ويحذفون الإشارة إلى تيارات النهر. وعندما يستخدم توفان الحضر تعبيرات اتجاهية فإنه غالباً ما يقولون "شرقاً" أو "غرباً". يقدم هذا المثال دليلاً على أن المعرفة المندمجة مع الطبوغرافيا يمكن أن تتلاشى من اللغة الشفهية، حين لا تدعو الحاجة لها وربما يحل محلها نظام الاتجاهات الأصلية المعروف.

يمكن أن نجد في العديد من الثقافات التي تكتسب فيها حالة المنظر الطبيعي العام أولوية فوق الاتجاهات الأصلية الأكثر تجريداً أنظمة مثل نظام الاتجاه المعتمد على تيار النهر. فأبناء قبيلة التابولاهان[٢٥] Tabulahan، والذين يسكنون جزيرة سولاويسي Sulawesi في أندونيسيا، لديهم إطاران مرجعيان متداخلان للتعبير عن الاتجاه. النظام الأول هو النظام الذي يشير إلى عكس اتجاه النهر/مع اتجاه النهر/ عبر النهر (كما رأينا في جزيرة أمبا، حيث نجد أن أي اتجاه عكس اتجاه النهر يكون إلى البر، في الداخل، وأي اتجاه مع اتجاه النهر يكون صوب البحر). يعد هذا النظام الاتجاهي لازماً، فإذا كان المتحدث ذاهباً إلى قرية تابولاهان، فإنه يمكنه أن يقول "إني ذاهب عبر تابولاهان" أو

"إني ذاهب عبر" ولكن لا يمكن أن يقول "إني ذاهب إلى تابولاهان". تجبر هذه اللغة متحدثيها أن يحددوا دائماً إذا ما كانوا ذاهبين ضد، أو مع، أو عبر التيار.

يشفر الإطار المرجعي الآخر والمستخدم في لغة آرالي- تابولاهان Aralle-Tabulahan (يبلغ عدد متحدثيها ٨٠٠٠ شخصاً) التمايز بين: على نفس المستوى/ فوق/ أسفل. ربما يكون من غير اللازم وجود نظامين للحديث عن "مع اتجاه النهر" و"أسفل التل". غير أنه ليس ببعيد تخيل موقف يتصارع فيه نظامان، مثلاً، إذ تطلب الأمر أن تسير إلى أسفل التل للوصول إلى مكان تقصده ضد اتجاه التيار. يمكّن الالتزام بتمييز الاتجاهين سكان الجزيرة من التحديد الدقيق ليس للاتجاه فحسب، ولكن أيضاً تحديد المحيط الكنتوري للرحلة ومنحدرها [٢٦].

يستخدم التوفانيون وغيرهم ممن تحدثت معهم هنا ثلاث مهارات لغوية متمايزة على الأقل في الحديث عن الحركة عبر المنظر الطبيعي العام. أما المهارة الأولى فهي النظام المفصل لتسمية الأماكن، بما في ذلك أسماء أدق التفاصيل في المنظر الطبيعي العام. قد تتثبت المعرفة الطبوغرافية في الذاكرة بإلباس المنظر الطبيعي ملامح حيوانية أو بشرية، أو بإعطاء بعض الأماكن أهمية دينية (كما نلاحظها عند التوفان، حيث تمجد عندهم أرواح المكان) أو بالتفاعل مع الأرض باستخدام حواس أخرى غير حاسة النظر.

ثانياً، يستخدم المتحدثون إطارات مرجعية متعددة بما في ذلك الإطار المحلي مثل إطار محور الجزيرة island axis (كما نرى في حالة جزيرة أمبا) أو إطار نبع المياه/ اتجاه تيار النهر (كما نرى حالة التوفان). وربما يستخدم المتحدثون أيضاً مجموعة من الإحداثيات العامة set of coordinates (جنوب - شمال)، غير أنهم يميلون إلى تفضيل الإحداثيات المرتبطة بالمحيط الكنتوري المحلي للأرض. يمتد هذا الإطار المحلي امتداداً

متشابكاً إلى مناطق خارج الإقليم التقليدي أو إلى المجالات الصغرى مثل طاولة الشطرنج، أو الجسد البشري، أو إلى داخل الخيمة البدوية.

المهارة الثالثة هي النزعة إلى الحديث كثيراً عن الأماكن والمناظر الطبيعية بصورة تجعلها تبقى في الذاكرة [٢٧]. إن هذه المهارات الثلاثة مجتمعة تنتج نظاماً قوياً للخارطة الذهنية. يفسر لنا هذا النظام، بعض الشئ، حقيقة أن البدو لا يضلون طريقهم أبداً وأنهم يقودون حيواناتهم إلى مراعٍ أكثر اخضرارًا، وأنهم يحسبون ذهنياً دورات طويلة من الهجرة يمكن أن تتكرر فقط كل عشر إلى اثنتي عشرة سنة. يفسر هذا النظام أيضاً كيف أنني، رغم ما أقتنيه من أدق الخرائط، ورغم وسائل الكشف العالمية عن المكان، لم أكن قادراً حتى على منافسة قدرة أطفال التوفان الصغار في توجيه أنفسهم في إطار المنظر الطبيعي العام لديهم. إن انطباعاتي عن المهارات الجغرافية لدى بدو التوفان إنما هي مجرد انطباعات تقوم على الرواية. فأنالم أقم بأية تجارب لاختبار آدائهم الفعلي في توجيه أنفسهم في بيئات طبيعية مألوفة أو غريبة. إن ما أقوله هنا هو أن لغة التوفان، مثل العديد من اللغات الأصلية، قد تكيفت بصورة فريدة مع البيئة كي تمد مستخدميها بمهارات معززة للتوجيه.

قام بعض العلماء باختبار مدى ما يمكن أن تقوم به المفاهيم اللغوية في بناء معرفة طبوغرافية وإحراز نجاح حقيقي في التوجيه. فأبناء قبيلة هايؤمHai||om (البوشمن) في ناميبيا (١٦٠٠٠ متحدث) (الخط الرأسي المزدوج "||" يمثل صوت طقطقة click) عادة ما يقطعون مسافات طويلة على الأقدام بحثاً عن الصيد والتماساً للطعام. يتحتم على هؤلاء الأفراد أن يتقنوا، على وجه اليقين، معرفة مجموعة متنوعة من مفردات المنظر العام للطبيعة (مثل الأدغال والكثبان الرملية والصخور ومراعي الحشائش، ... إلخ) وما به من مناظر غامضة و مترامية، وما به من تنوع في

النبات والحيوان. لاحظ الإثنوجرافي توماس ويدلوك Thomas Widlok ما يتمتع به الهايؤم من يسر واضح في عبور بيئات طبيعية واسعة ومتنوعة وفي توجيه أنفسهم بمهارة كبيرة. لاحظ ويدلوك أن هذه المهارات كان ينظر إليها بصورة مبالغ فيها أثناء فترة طويلة من الهيمنة الاستعمارية والتي كانت تصف رجال البوشمن بأنهم صيادون خارقون للعادة، ومن ثم فقد قرر أن يختبر قدراتهم عن طريق إجراء تجارب منضبطة controlled experiments.

في مجموعة متسلسلة من رحلات السير على الأقدام بلغ مداها ٤٠ كيلومتراً، حمل ويدلوك معه آلة للتحديد الكلي للأماكن وطلب من رحالة الهايؤم أن يحددوا المعالم الرئيسة وأن يصلوا إلى وجهات محددة بمحاذاة الطرق غير المألوفة ثم يقومون بعد ذلك بوصف الرحلة التي قاموا بها بعد ذلك. لقد كانت النتائج التي خرج بها ويدلوك مدهشة. تفوّق الهايؤم على الأوروبيين الذين طلب منهم أداء نفس المهام. أجريت دراسة أخرى على البريطانيين وأثبتت سوء أدائهم عندما حاولوا تحديد الاتجاه الأصلي من نقطة انطلاقهم بعد السير لمسافة كيلومتر داخل الغابة. وبالمثل، طلب من جامعي عش الغراب الهواة من الهولنديين، والذين ساروا في غابات "شبه مألوفة" لديهم، توضيح النقاط المكانية القريبة والبعيدة (غير المرئية). حقق الهولنديون في هذه المهمة نتائج لا تفوق مستويات الصدفة العشوائية إلا قليلاً. أشار الهايؤم البوشمن في تجارب ويدلوك إلى أماكن معروفة غير المرئية بمتوسط معدل انحراف عن الهدف بلغ ١٦,٤ درجة فقط[٢٨].

يخلص ويدلوك من دراسته إلى أن "مهارات تحديد الاتجاه لدى الهايؤم تعبر عن واقع حقيقي. فأداؤهم في مهام التوجه يصل لمستوى عال جدًّا، ورغم أن هذا المستوى لا يصل إلى المستوى الأسطوري الذي ادعاه بعض الملاحظين، إلا أن مهاراتهم تفوق

مهارات الأوربيين." ولكن، ما هي الأدوات الذهنية التي يستعملها الهايؤم في تحقيق هذا التمكن من معرفة المنظر الطبيعي العام؟ لاحظ ويدلوك أن لغة الهايؤم تحتوي على عدد كبير من الكلمات الدالة على المنظر الطبيعي العام كما أنهم يستعملون نظاماً للاتجاه يقوم على أساس الجهات الأصلية (شمال/جنوب/ شرق/ غرب)، يمكّنهم من الحديث عن المعالم الرئيسية في البيئة بغض النظر عن موقع المتحدث أو السامع. ثالثاً: يكثر الهايؤم دائماً من ذكر الإشارات عن المكان والتي يسميها ويدلوك "الحديث الطبوغرافي"topographic gossip، أي الأحاديث التي تدور حول المنظر الطبيعي العام وكيفية عبوره. يقول ويدلوك مختتمًا حديثه: "نظراً لأنهم (الهايؤم) لا يستخدمون أي خرائط مادية، فإن نقل المعلومات المكانية يعد أمراً ذا أهمية كبرى. فهناك حالة مستمرة من الحديث المتواصل عن الأماكن وعن تواجد الناس وموارد العيش. إن هذا الحديث الطبوغرافي لا يستعمل إلا القليل من المصطلحات الشخصية أو الجسدية غير أنه يستعمل نظاماً من المصطلحات المرتبطة بالمشهد الطبيعي يشترك فيه أفراد المجتمع"[٢٩].

يمكن للمتشكك أن يقول إن هذه القدرة لا تختلف (أو لا تعد أمراً استثنائياً) عن قدرتي على توجيه نفسي في مانهاتن Manhattan أو على السير، دون تفكير، من ناصية الشارع الخامس Fifth Avenue والشارع التاسع والخمسين fifty ninth street في الجانب الشرقي العلوي إلى الشارع العشرين Twentieth Street والشارع الثامن Eighth Avenue في تشيسلي. وقد لا يختلف هذا أيضاً عن قدرتي على تمييز الاتجاهات مثل: أطراف المدينة، وسط المدينة، عبر المدينة، واتجاهات الشرق، والغرب، والشمال، والجنوب. غير أن مقارنة المعرفة الطبوغرافية عند أهل مانهاتن ومعرفة التوفانيين على هذا النحو هو أمر سطحي جداً وهذا من شأنه أن يجعلنا نفقد شيئاً مهماً إذا ما توقفنا عند هذه النقطة.

تعد عمارة المدن وتصميمها شيئا عضوياً يتطور عبر الزمن، ويمكن للمرء أن يرى تاريخ ذلك بالنظر إلى الحفريات الأثرية لوسط مدينة لندن، مثلاً، وتطورها حتى أصبحت على ما هي عليه الآن؛ فالمدن لا تظهر بين عشية وضحاها، بل تتراكم عبر قرون وتتأسس على آلاف من القرارات. وبعيداً عن قرارات التخطيط الواعي، هناك عوامل منبثقة emergent، ذاتية التنظيم. فالتجار ذوو البضائع المتشابهة يتجمعون معاً، وكذلك القصابون والخياطون وتجار السيارات.و عندما تكون الشوارع غير مخططة في شكل شبكة فإنها تتطور تطوراً عضوياً، كتطور ظهور ممرات المشاة footpaths على الحشائش التي يسير عليها الناس ثم تُعبَّد بعد ذلك بالمزيد من المشاة حتى يتم تحديد أفضل مسار بين النقطة أ والنقطة ب.

إذن، كيف تختلف معرفة ساكن نيويورك بمانهاتن عن معرفة التوفاني بالسهول الواسعة steppes؟ يكمن الاختلاف في أننا لا نضع في أذهاننا كل هذه القرون من المعلومات المتراكمة حول التنظيم الحضري، إننا نخرج من أذهاننا هذه الحقائق و نضعها في شكل لافتات و شوارع وأسماء للشوارع وعناوين وخرائط وأطالس ونضعها تحت تصرف المرشدين السياحيين وكتب التاريخ وأنظمة الملاحة الحاسوبية.

في مكان واسع مفتوح مثل التوفا، حيث لايترك الناس إلا أقل أثر لأقدامهم على البيئة، يجب أن تُستوعَب الأرض كلها في الذاكرة، إذ لا يوجد أي لافتات ولا مبان دائمة ولا تُنشأ الطرق المعبدة. وهذا الحفظ، بالطبع، أمر يسير عند التوفان. فهم يقضون كافة حياتهم في ملاحظة وجه الأرض و يحفظون في ذاكرتهم بسهولة أدق تعاريجها وملامحها. غير أن لغة التوفا أنشأت أيضاً طرائق لترميز الفضاء ولصياغة المعلومات الطبوغرافية. وهذه الطرائق من شأنها أن تساعد الذاكرة، وهي تتوافق توافقاً فريداً مع البيئة المحلية. ونظراً لأن اللغة تمثل تراكماً للمعرفة عبر مئات من

الأجيال، فلا يمكن مقارنتها إلا بشكل كلي مع خريطة ذهنية لمانهاتن أو مع مصطلحات عامة قد نستخدمها مثل مصطلح "عبر المدينة" cross-town. تعد المعارف التي اكتسبها التوفان أقدم وأكثر تفصيلاً وأكثر اندماجًا في اللغة والذاكرة، غير أنها أيضاً أسرع في الزوال وأقل بقاءً في الذاكرة. تعتمد هذه المعارف في بقائها على تفاعل مستمر وحميم مع الأرض وتعتمد كذلك على نقل شفهي غير مكتوب لها.

اختلاف آخر بين معرفة ساكن نيويورك بمانهاتن و معرفة التوفاني تتمثل في كيفية تكامل هذا النظام بأكمله. فالمصطلحات الطبوغرافية عند التوفا لا تستعمل في التوجيه فحسب ، بل تتداخل مع العالم الروحاني وممارسة الأرواحية animism، فيمكن لمصطلحات الاتجاهات مثل "ضد التيار" أو "مع التيار" أن تنسحب على أعضاء في الجسد البشري ومكونات من الأشياء ومفاهيم مجردة. فالتوفان يفهمون المستقبل على أنه جهة الشمال، خلف ظهورهم، ويتحدثون عن الماضي على أنه شيء ماثل أمامهم، جهة الجنوب. فالمفاهيم الزمنية تنشأ عن مفاهيم مكانية، وهذا يصدق على معظم اللغات، ففي اللغة الانجليزية حينما نقول spring break is approaching "تقترب إجازة الربيع" إننا نفهم الإجازة على أنها شيء أمامنا و يتحرك نحونا في اتجاه خطي. وتعبير إنجليزي آخر مثل spring is just around the bend " أوشك الربيع على الاقتراب من المنعطف" يمكن قراءته على أنه يشير إلى طريق أو نهر. غير أن هذه التعبيرات في اللغة الإنجليزية قد أصبحت منفصلة عن استعاراتها الطبوغرافية وتفهم على أنها من المسكوكات اللغوية الجاهزة stock phrases.

إذن، لا تكمن المسألة في أن النظام التوفاني نظام استثنائي، إنما تكمن في أن هذا النظام قد أصبح جزءًا من الحديث اليومي. إنه ملتصق التصاقاً وثيقاً بمشاهد الطبيعة ومندمج اندماجاً شاملاً في العديد من السلوكيات مثل الهجرة والصيد والعبادة وهكذا.

لقد سكن بدو التوفان سهول سيبيريا الفسيحة لقرون، بل لآلاف، السنين و حفظوا في ذاكرتهم ما يملكون من معارف ونقلوها لمن بعدهم واعتنوا بها لقرون عديدة. إنها الحكمة المتراكمة والملاحظات الحاذقة لمئات بل وآلاف العقول، حكمة تقطرت إلى جوهرها بالتجريب المستمر والتطور عبر الزمن. إن ذلك هو ما يجعل هذه الأنظمة المعرفية شيئاً استثنائياً.

معرفة مهددة بخطر الانقراض

تختلف الأنظمة المعرفية اللغوية/ الطبوغرافية مثل تلك التي عايناها في التوفا والتوفان وبتاوا وإمبا ولغات أخرى فيما بينها اختلافاً بيناً غير أنها تتشابه في العديد من الملامح. سوف ألخص سريعاً خمسة جوانب تتشابه فيها تلك الأنظمة، وتختلف (حسب الدرجة أو الكيفية) عن الأنظمة التي نجدها في اللغات العالمية الكبرى، وهذه الجوانب هي:

أولاً: تطلق كل لغة من هذه اللغات أسماء على بقاع كثيرة من الأرض و لا تقتصر على الملامح التي قد يعتبرها صانعوا الخرائط ذات أهمية، إذ إن هذه اللغات تعطي أسماء لملامح خفية و متناهية في الصغر، ويبدو أيضاً أن العديد من تلك اللغات تطلق ألفاظاً على نقاط طبوغرافية تزيد في عددها كثيراً عما نجده في لغات من يعيشون في المجتمعات الصناعية الغربية. تعد معظم هذه الأسماء الطبوغرافية شفافة المعنى، بخلاف ما نجده في تسمية نهر "المسيسبي" بهذا الاسم (على الأقل بالنسبة للغة الإنجليزية؛ مع أن هذه التسمية عند متحدثي لغة الأُجبوا Ojibwa، والذين يبلغ عددهم ٣٥,٠٠٠نسمة، لا تزال تعني "النهر العظيم" great river.

ثانياً: تستعمل تلك الثقافات استراتيجيات تقوم على الأنسنة anthropomorphizing وذلك بتسمية المعالم الأساسية بأسماء أجزاء من الجسم البشري أو الحيواني كطريقة لحفظها في الذاكرة. وفي بعض اللغات التي تم تحليلها، تستند التسمية إلى النظام الاعتقادي السائد

والذي يخلع أهمية تقديسية وتاريخية وجمالية على نقاط محددة داخل المنظر الطبيعي العام.

ثالثاً: قد تستعمل هذه الثقافات حواساً غير حاسة البصر لمعاونة الذاكرة في ترميز coding المنظر الطبيعي العام. فتلك الثقافات تولي اهتماماً كبيراً بالأنهار وينابيع المياه واتجاهات الرياح و بعض الملامح المحلية الأساسية في البيئة. يضاف لهذا الاهتمام أيضاً، في حالة الثقافات الجبلية وتلك التي تنشأ في الجزر، اهتمام آخر بميل مستوى إنحدار الأرض أو ما يسمى بمحور البر/البحر land/sea axis. وعندما تستخدم هذه الثقافات الاتجاهات المطلقة (الشمال/ الجنوب) فإنها تستخدم أيضاً نظاماً ثانوياً اختيارياً لايكاد يمثل النظام الأساسي اليومي. فالأمر الذي يشد انتباه الناس فيقومون بتسميته في المنظر الطبيعي العام إنما يكون، في أغلب الأحيان، انعكاساً لحاجاتهم للبقاء على الحياة، مثل الصيد، و الحصاد، والرعى، والملاحة. وقد تتكامل المعرفة بالاتجاهات تكاملا وثيقاً مع الأنشطة اليومية، ولكنها قد تعكس أيضاً اهتمامات جمالية محضة، مثل الاهتمام بالصدى الذي تحدثه الأصوات في بعض أنواع المناظر الطبيعية أو الاهتمام بالكيانات الروحية التي يعتقد وجودها في تلك البيئات الطبيعية.

رابعاً: لا تقف هذه الأنظمة الاتجاهية بمعزل عن غيرها في تلك الثقافات، فهي، دائماً، كيان معرفي متكامل يشتمل على أنماط للظواهر المناخية والسلوك الحيواني، ومظاهر الطبيعة، والهجرات البشرية والأساطير.

خامساً: إن الخصائص الطبيعية التي تحظى بملاحظة الناس، في نهاية المطاف، فيقومون بتسميتها وتَتَبُّعها، يتم تجسيدها وتفعيلها من خلال اللغة التي يتحدثونها. تلزم بعض اللغات متحدثيها، نظراً لما تقوم به من عمليات ممتدة تتوافق مع المنظر الطبيعي العام، على ملاحظة خصائص معينة وتحديدها مثل تلك الخصائص المتعلقة باتجاه انسياب النهر. وتنطوى تلك اللغات على درجة أكبر من الكفاءة غير أنها تمثل أيضاً عبئاً معرفياً أعظم.

وتنشأ هذه الكفاءة اللغوية من أنه حين يتم ترميز المعرفة بصورة آلية تصبح تلك المعرفة دائماً طوع بنان متعلم اللغة وبالتالي يكتسبها دون مجهود. أما العبء المعرفي فإنه ينشأ عن حاجة الناطقين باللغة إلى مراعاة خاصية معينة (مثلاً، اتجاه تيار النهر) حتى يتسنى لهم التعبير عن الفكرة فحسب.

لقد تم اختيار كل من هذين المثالين لأن كلاهما يعبر عن ثقافة ترتبط ارتباطاً حميماً بمجال بيئي معين. ولا يعني ذلك أن اللغات الكبرى واسعة الانتشار، مثل الأسبانية، لا يمكنها التأقلم بنفس الطريقة مع المجال البيئي وترميز المعرفة الخاصة بتلك الأرض، ولكن حين يستعمل مجموعة سكانية صغيرة لغة مجال بيئي واحد فقد تتكيف تلك اللغة مع هذا المجال البيئي تكيفاً سريعاً وحميمياً، وبذلك قد تنجح في ترميز معلومات أوفر عن التفاعل الإنساني البيئي. وإذا كانت الثقافة الصغيرة التي نحن بصددها متأصلة في أرضها، فإن اللغة، حينئذ، تكون معبرة عن قرون من الملاحظات المتراكمة وأجيال من الحكمة الجغرافية.

تنتقل المعرفة الجغرافية ومحتواها الثقافي في شكل أغنيات وحكايات وصلوات وغيرها من طرائق الحديث. وفي ظل ثقافة شفهية محضة، أو هي كذلك في معظمها، مثل ثقافة التوفا أوالأمبا أوالتوفان والتي لم تكن تستعمل الخرائط المرسومة بصورة تقليدية، فإن الكلام الشفهي هو الوسيلة الوحيدة للنقل. فإذا تخلى متحدثو أي من تلك اللغات خلال جيلين أو ثلاثة من الزمن عن لغتهم وشرعوا في التحدث بالأسبانية، فإنهم يفقدون كثيراً من معارفهم الجغرافية. وكما أننا لا نستطيع بسهولة أن نسترجع مهارات رسم الخرائط "الساذجة" بمجرد أن ألف الناس الخرائط الحديثة والمنظورات مثل منظور عين الطائر، فإننا كذلك لا يمكننا بسهولة استرجاع المعرفة الطبوغرافية، سواءً أكانت تلك المعرفة تتمثل في أسماء الأماكن مثل المسيسبي Mississippi أم في أطلس ذهني كامل، بمجرد أن ضاعت تلك المعرفة في الترجمة.

هوامش الفصل الرابع: أطلس في العقل

(١) كان تعليق العم بيتر بولخوبيف Peter Bolkhoyev بلغة التوفا هو "dyžymde deg" "كما لو كان في أحلامي".

(٢) حول وصف مختصر لمناطق الصيد عند قبيلة التوفا، انظر سيرجييف (Sergeyev، ١٩٦٤م). تم استعراض تقنيات الصيد الجغرافية الإثنية عند التوفا في ميلنيكوفا (Melnikova، ١٩٩٤م).

(٣) كاستارما هي أحجار منسقة الأشكال تكونت حينما حولت الضغوط الهيدرولوجية الأرضية الطين اللين إلى أشكال عجيبة. قد يطلق الجيولوجيون على هذه الأحجار اسم "الكتل المتحجرة" Concrevetions.

(٤) وحدات المسافة عند التوفا : ١كوش يساوى تقريبا ٢٥ كيلو متراً. (راساوين Rassadin، ١٩٩٥ م ، ص٢٧).

(٥) المسافة عند الشربا. راجع فشر (Fisher ، ١٩٩٠م).

(٦) الخريطة المحاكة في معطف الشاماني. أوكلادنيكوفا Okladnikova، ١٩٩٨ م، تقتبس تشوسونيت ودريسكول (Chaussonnet and Driscoll ، ١٩٩٤م).

(٧) العالم الأسطوري عند التوفا. تشرح ميلنيكوفا هذا النظام العقدي شرحاً تخطيطياً في دراستها (Melnikova ١٩٩٤ ، ص ص ١٩٦- ١٩٧). ناقشت بالتفصيل هذا الموضوع مع مستشاريي الأصليين من التوفا، عامي ٢٠٠٠ م و٢٠٠١ م، ووجدت أن النسيان قد طوى معظمه.

(٨) أغنيات النهر عند اليوكاغير Yukaghir river songs. ارجع الى نيكوليفا ومايير Nikolaeva and Mayer (٢٠٠٤ م).سجل هذه الأغنيات نيكولاى ليكساتشيف Nikolaj Lixachev في عام ١٩٨٦ م. والأسطر المقتبسة هنا هى الأسطر من ١ الى ٤٠ من أغنية ليكساتشيف " على الكوليما" On the Kolyma ، يتبعها الأسطر من ٣ إلى ٥ من أغنية أورويك Oroek. نجد الملفات الصوتية لتلك الأغنيات والمكتوبة بالرموز الصوتية وترجمة لها في نيكوليفا ومايير (Nikolaeva and Mayer، ٢٠٠٤ م). حول ترجمة الكتابة التصويرية والخرائط عند

اليوكاغير، انظرجوكوفا (Zhukova، ١٩٨٦ م). تم تدوين أغنيات الخرائط (وأغنيات الابحار) في ثقافات أخرى مثل ثقافة سكان جزر المحيط الهادى Pacific Islanders (انظر ستيمسون Stimson ، ١٩٣٢ م ،ودفينبورت Davenport ، ١٩٦٠ م).

(٩) بحيرات التونجس منفصلة عن أنهارها الغزيرة (ادلر Adler، ١٩١٠م ، ص ص١٢١ ،١٢٢). تنفصل بحيرات الياكوت عن طريق أنهارها (أدلر Adler، ١٩١٠ م، ص ١٢٧).

(١٠) يقول أدلر، (١٩١٠ م، ص ١٠٦) "تظهر الخرائط التي يرسمها الأفراد تفاوتاً كبيراً فيما بينهم".

(١١) ينيسي أوستياك Yenisei Ostyak (يطلق عليه الآن اسم "خانتي"Khanty) انظر دي هوتورويكز (De Hutorowicz، ١٩١١ م، ص٦٧٢) .

(١٢) الغريزة الطبوغرافية عند الماكوندي وكينيا مويسى (نيامويسيى) Makonde and Kinyamwesi، انظر ويولي (Weule، [١٩٠٩ م]، ١٩٧٠م، ص ص ٣٧٢، ٣٧٣)، مقتبسة في هوتورويكز أيضا (de Hutorowicz، ١٩١١م، ص ٦٧٤) مع تعديل بسيط في الترجمة.

(١٣) رسم خرائط للأنهار عند اليوكاغير، (شيرينا Shirina، ١٩٩٣م) مقتبسة في أوكلادنيكوفا (Okladnikova، ١٩٩٨ م، ص٣٤٠) .الفيرست Verst هي وحدة مقاييس قديمة تساوى ١,٠٦٧ كيلومتراً أو ٠,٦٦ ميلاً.

(١٤) الخرائط عند أطفال الشربا (جيمس فيشر James Fisher، ١٩٩٠م، ص ٨٥). أظهرت دراسة كمية عن استخدام الأطفال النيباليين للمصطلحات المكانية (نيراولا وميرشا وديزن Niraula, Mishra, and Dasen، ٢٠٠٤م، ص١١٧) وميل هؤلاء الأطفال الشديد لاستخدام مصطلحات متمركزة حول الجغرافيا geocentric (وليس حول الذات egocentric) واستخدامهم نظاماً للاتجاهات يفضل الأبعاد الفوقية والتحتية up /down dimension.

(١٥) ملاحظات حول لغة البتناوا Bantawa (هارت Hart، ٢٠٠٣ م) ؛ ملاحظات ميدانية غير منشورة. تشترك العديد من لغات الكيرانتي Kiranti التي تستخدم في نيبال في هذا الاهتمام بالبعد الرأسي. يناقش إلبرت (Elbert، ١٩٩٩م) هذه الظاهرة في العائلة اللغوية الكيرانتية، ويرى أن هناك أيضاً إيحاءات غير مكانية، فالاتجاه "فوق" up يشير إلى النقاء والزهد

austerity، بينما الاتجاه "تحت" down يوحي بالثروة والوفرة والأغراب. في أعالي أرض الكيرانتي (شمالاً وفي أعلى التل)، تقع المنحدرات الجليدية المجدبة لأعلى جبال العالم، والتي لا يخترقها أحد فعلياً. بينما في الأسفل (الجنوب وأدنى التل)، تقع الطرق والمدن الكبرى ودلتا نهر الجانج الخصبة في الهند. غير أن هذه المصطلحات المفهومة التي تشير إلى الاتجاهات في أرض الهيمالايا المحلية يمكن أن تسبب ارتباكاً عند تطبيقها على العالم الأرحب. يروي آلان (١٩٧٢م) أن متحدثي الثولونج Thulung قد ساورهم الشك في تأكيده لهم بأن انجلترا تقع بعيداً في شمال نيبال و بها أراض زراعية وطقسا معتدلاً. يعني "الشمال" عندهم، حتمياً، أعلى التل، وأكثر برودة. انظر بيكل وجنزلي (Bickel and Gaenszle ١٩٩٩ م) لمزيد من المعلومات حول أنظمة الارتفاع altitude الهيمالايانية. لأمثلة تخالف ما سبق في إحدى اللغات النيبالية (لغة شانتيال Chantyal) والتي لا يبدو أن بها أفعالا تعبر عن الطرق الرأسية، انظر نونان (Noonan، ٢٠٠٥ م).

(١٦) ممرات الهانونو Hanunóo trails (كونكلن Conklin [١٩٥٧ م]، ١٩٧٥م، ص ٥٦).

(١٧) الرياح الهانونية، الاقتباسات، والمخططات (كونكلن [١٩٥٧]، ص٣٥).

(١٨) أسماء الرياح عند البدو(يانج، ٢٠٠٥م). في الوصف الصوتي تنطق المصطلحات الأردنية [jiarrig] يشرِّق" و [jiarrib] "يغرِّب".

(١٩) مالاكولا. إذا ذكر اتجاه محدد في المالاكولا فقط، وليس في الجزيرة عموماً، فإن متحدثي اللولوفولي Lolovoli يعودون إلى التمييز بين "هاجي" و"هيفو" hage/ hivo فيستخدمون "هيفو" للاتجاهات المقصودة في شمال غرب المالاكولا ويستخدمون هاجي للاتجاهات في الجزء الجنوبي الشرقي من الجزيرة.

(٢٠) بيانات اللولوفولي أمبا. يعد هيسلوب (Hyslop ١٩٩٩م) هو مصدر المعلومات التي نقدمها هنا. هناك دراسات علمية غزيرة حول الأنظمة المحيطية المتعلقة بالجزر والأنظمة المتمركزة جغرافياً. انظر على سبيل المثال، سنفت (Senft ١٩٧٩م) ، وبيناردو (Bennardo ٢٠٠٣م)، وفرانسوا (Francois، ٢٠٠٣ م و ٢٠٠٤ م). للمزيد حول تقنيات الإبحار الأصلية انظر جلادوين (Gladwin ١٩٥٨ م)، وهتشنز (Hutchins ١٩٨٣ م). ساعدني في إنجاز هذا البحث أربيارسوندرز Arpiar Saunders.

(٢١) التوفان ليست وحدها في هذا التخطيط الاستعاري – فقبيلة اليوبنو Yupno في بابوا غينيا الجديدة ينظرون إلى وادى النهر الذين يقطنونة بأكمله ويعبرون عنه كجسد رجل أسطوري عملاق (واسمان Wassman، ١٩٩٧م) كما يفعل أهل قبيلة التيف Tiv في غانا (ابراهام Abraham ، ١٩٣٣ م).

(٢٢) كان الرسم الأرواحاني Animistic mapping يمارس أيضا بين سكان كاورنا Kaurna الأصليين في استراليا (لم يبق متحدث طلق واحد بهذه اللغة)، كانت الأماكن التي وسمها الكاورنا تمتد فوق منطقة تبلغ مساحتها ١٥٠٠ ميلاً مربعاً، على ساحل جنوب أستراليا بالقرب من أديليد. ويتوافق كل اسم مكاني مع عضو من أعضاء الجسد في كنغر خيالي عملاق. في هذا المشهد الكنغري العملاق، كانت هناك قمتان جبليتان تمثلان الأذنين، وكانت شبه الجزيرة تمثل " الأنف" وكان التلان يمثلان الحاجبين، والنهر يمثل الذيل، بينما كان أحد الأنهار القريبة يمثل " الفضلات" وكانت دلتا النهر تمثل"الحلق". كانت هناك ملامح مشهدية أخرى تمثل المخ والأقدام، ... الخ. انظر ويب (Webb ، ١٩٣٦- ١٩٣٧م)، انظر أيضاً هركوس وهودجز وسمبسون (Hercus, Hodges and Simpson ، ٢٠٠٢ م).

تعد الكاورنا الآن لغة منقرضة بموت آخر المتحدثين بها في ثلاثينات القرن العشرين. نشأ شباب الكاورنا على الشعور بأنهم الأصليين ولكن فاقهم أقرانهم من الأستراليين في العدد، علاوة على افتقادهم لأي معرفة بلغة الأجداد. قام مجتمع الكاورنا ، مؤخراً، بمجهود بطولي "لبعث" هذه اللغة القديمة من سباتها. وليس من عجب أن يبدأوا أولاً بالتركيز على أسماء الأماكن الجغرافية، فيعيدوا بعثها ويحفظونها ويضعوا لافتات ثنائية اللغة للتعرف عليها. وتعكس أسماء الأماكن عند الكاورنا، مثل يرلتو-وارتي Yerlto-Warti "ذيل الأرض" و"واريباري" Warripari "حلق النهر"، عالم الطبيعة وفق منشور ثقافة الكاورنا Prism of Kaurna Culture. و يطرح الكاورنا آلية مباشرة لإعادة ربط القبيلة بأرض أجدادهم والتي يقطن معظمها المهاجرون الأوروبيون في الوقت الحاضر. لقد كانت الأرض ملهماً للأجيال الجديدة من الكاورنا الذين يجاهدون لإعادة إحياء لغتهم. وكما قال أحد متعلمي الكاورنا الشبان، وهو دينيس كاماورتي أوبراين Dennis Kammamurty O'Brien، "أستطيع أن أرى مستقبلاً باهراً للكاورنا. ربما سيكون الكنغر العملاق وأسماء الأماكن

التراثية الكاورنية ملهماً لمزيد من الكاورنيين للنظر مرة أخرى إلى علوم الأجداد."

(٢٣) رمزية الصوت عند التوفان Tuvan sound symbolism (هاريسون، ٢٠٠٤م).

(٢٤) الحساسية الصوتية عند التوفان Tuvan sound sensitivity (ليفين Levin، ٢٠٠٦م). يفترض فيلد (Feld، ١٩٩٦ م ص ١٠٨) فرضيات مماثلة عن لغة الكالولي في بابوا غينيا الجديدة والتي تمتلك مستودعاً ضخماً من الكلمات المعبرة عن صوت الماء وحركته. يناقش جل (Gell ١٩٩٥م) كيف تشكل الأيقونية الفونولوجيةPhonolosical iconism وترمز المعرفة بالمناظر الطبيعية عند غيرهم من قبائل بابوا غينيا الجديدة.

(٢٥) تابولاهان Tabulahan. هناك ثمانية آلاف متحدث يمثلون جميع المتحدثين بلغة الآرالي - تابولاهان Aralle-Tabulahan. ونناقش هنا لهجة قرية التابولاهان.

(٢٦) الاتجاهات عند الآرالي- تابولاهان (ماكنزى Makenzie ١٩٩٧م).

(٢٨) التسمية المكانية. انظر باسو (Basso، ١٩٩٦م) في عرض متميز حول كيفية ترميز السكان الأصليين لأسماء الأماكن في القصص والمحادثة.

(٢٨) الاتجاه البريطاني. يصف روبن بيكر Robin Baker (١٩٨٩ م) في هذا العمل التجارب التي أجريت في غضون سبع سنوات، حيث أدخل ٥٥٤ شخصا ممن أجريت عليهم التجربة في أراضي غابات غير مألوفة تبلغ مساحتها من ٢- ٤ كم، وقطعوا مسافات تتراوح بين ٠,٣ إلى ١,٧٥ كيلو متراً من نقطة البداية المألوفة. طلب من هؤلاء الأشخاص تحديد اتجاه العودة إلى نقطة البداية وكان متوسط نسبة الخطأ لديهم ١٧ درجة ($\pm$ ١٠ درجات). طلب إليهم بعد ذلك تحديد الجهة الأصلية التي يتجهون إليها ووصلت نسبة الخطأ في ذلك الى خمسين درجة ($\pm$ ٢٢ درجة). من الملاحظ هنا أن هذه المهمة كانت أيسر بكثير من المهمة التي أعطيت للهايؤم، فقد سيق البوشمن إلى ما يمكن التيقن من أنه كان آجاماً شبه مألوفة تتراوح أطوالها من ١٥ الى ٤٠ كيلومتراً (أى أبعد بمقدار عشر مرات مما أعطى لأفراد التجربة البريطانيين) وطلب منهم أن يشيروا إلى أماكن متعددة أخرى مألوفة (ليس فقط إلى مكان نقطة البداية) وبلغت مسافة بعض هذه النقاط ٢٠٠ كيلومتراً.

ويفسر ليفينسون (Levinson، ١٩٩٧م، ص ١٢٨، النقطة رقم ٢٠) النتائج التي توصل إليها بيكر (١٩٨٩م) والتي كان مؤداها أن " أقل من نصف أفراد التجربة البريطانيين قد

حددوا الأماكن في حدود الربع دائرة (تسعين درجة) الصحيحة". لا يدعم كتاب بيكر، ١٩٩٨ م، تلك النتائج دعماً مباشراً. ربما نجد دراسة عميقة لسلوك تحديد اتجاه الطريق عند إنسان الحضر في كتاب جولدج (Golledge، ١٩٩٩ م).

(٢٩) الحديث الطبوغرافي، Topographic gossip، (ويدلوك Widlok ١٩٩٧م، ص ٣٢٥) واتصال شخصي.

عجلة الحظ ونفحة من البركة

Wheel of Fortune and a Blessing

لم أكن لأتصور يوماً أن الجلبة التي يحدثها البرنامج التليفزيوني"عجلة الحظ" wheel of fortune سوف تغطي على صوت آخر المتحدثين بإحدى اللغات المهددة. كنت أجلس في غرفة المعيشة في بيت خشبي متواضع في قرية صغيرة في لتوانيا في عام ١٩٩٤م مع السيد ميكولاس فيركوفيتشيوس Mykolas Firkovičius، وهو رجل أعتقد أنه من آخر الباقين على قيد الحياة من متحدثي لغة الكاراي Karai.

لم تكن لدي أدنى فكرة حول لغة الكاراي، وكنت مشتاقاً كي أسمع السيد فيركوفيتشيوس في هذه الجلبة المنزلية. في غرفة المعيشة كانت تدور مناقشة حامية بين ثلاثة أطفال صغار باللغة الليتوانية، لغتهم الأولى.كان التلفاز يعرض النسخة الروسية من برنامج المسابقات الأمريكي الشهير. وكانت أخت السيد فيركوفيتشيوس المسنَّة تخرج وتدخل علينا وتقدم لنا الشاي وتتبادل مع أخيها بعض الكلمات من لغة لم أكن قد سمعتها على الإطلاق. كنت أتحدث إلى فيركوفيتشيوس بالبولندية التي كان كلانا يتحدثها بطلاقة. إن التحدث بأربع لغات في آن واحد من شأنه أن يحدث جلبة إلى حد ما.

لقد قابلت السيد فيركوفيتشيوس هذا اليوم بمحض الصدفة، فلم يكن يقطن في قرية تاراكاي Tarakai الصغيرة حين قابلته، ولكن كان يعيش في العاصمة فيلنياس Vilnius وهي مدينة تبعد ٢٥ ميلاً عن القرية. بمحض المصادفة، خرج فيركوفيتشيوس في ذلك اليوم كي يزور أخته، أما أنا فقد جئت للتوانيا مع مجموعة دراسية من دارسي الصيف وكنت في رحلة نهارية إلى تاراكاي. توجهت المجموعة لزيارة تلك القلعة الخلابة التي ترجع للعصور الوسطى والواقعة في إحدى الجزر في البحيرة والتي كانت يوماً مقراً للملوك الليتوانيين خلال القرن الرابع عشر، أما أنا فقد قررت لنفسي جدول أعمال مختلف. لقد انطلقت وبصحبتي جهاز التسجيل الخاص بي وأخبرت أصدقائي أني قد خططت لمقابلة أبناء أصغر أقلية لغوية في ليتوانيا.

أثناء سيري في الطريق الأوسط من القرية قابلني رجل ضخم أسمر اللون، وكان هذا الرجل البالغ من الطول ستة أقدام وبوصتين، على أقل تقدير، يمشي متمايلاً على قدميه وكان يبدو عليه أنه في مزاج احتفالي. ألقيت إليه بالتحية مختبراً لغتي الليتوانية المبتدئة قائلاً له "أريد أن أقابل أهل الكرايم Karaim". لم يكن رد فعله ما كنت أتوقعه. لقد احتضنني حضناً كبيراً كحضن الدب قائلاً لي "هيا بنا". مشينا نتهادى وقد تأبط كل منا ذراع الآخر في طريق خال من المارة يراقبنا أهل القرية المشدوهين. وصلنا إلى بيت خشبي منظم له رواق borde وأخذ الرجل ينادي، فظهرت سيدة تبلغ من العمر السبعين تقريباً عند الباب وأطلقت ما يشبه التوبيخ في اتجاهنا. رفع الرجل الضخم رأسه واستأنف السير. فهمت المقصود وصعدت درجات السلم قائلاً " لقد جئت كي أتحدث مع أهل الكرايم، أنا من أمريكا" فردت المرأة قائلة "انتظر" ثم أغلقت الباب. وبعد ثوان انفتح الباب وقام بتحيتي تحية حارة رجل قليل الحجم، نحيل يلبس نظّارة سميكة كبيرة وسألني "هل أتيت لتقابل الكرايم؟ "

تفاعلنا معاً سريعاً وبدأ السيد فيركوفيتشيوس يخبرني ونحن نحتسي الشاي عن طفولته في قرية تاراكاي التي يرجع تاريخها إلى العصور الوسطى. وأخذ الرجل يحكي قائلاً "لقد اعتدنا جميعاً الحديث بلغة الكاراي هنا، غير أننا كنا نتحدث البولندية في المدرسة لأنها كانت لغة التعليم. وكنت أتحدث الروسية وبالطبع كنت متحدثاً طلقاً باللتوانية". قاطعته كي أجامله على إتقانه لعدة لغات، ثم سألته عن عدد المتحدثين بلغة الكاراي. انحنت رأسه بصورة واضحة عندما وجهت له هذا السؤال. توجه نحوي لكي يتأكد من شيء، وأردف قائلاً "سيدي، إن لغتنا تختفي." ألححت عليه في السؤال، فقد كنت أريد أن أعرف، على وجه اليقين، عدد المتحدثين بهذه اللغة من الباقين على قيد الحياة. فقال لي، بعد أن قام ببعض الحسابات الذهنية وأخذ يذكر بعض الأسماء كأخيه وأخته وهكذا، أنه غير متأكد ولكن ربما يكون العدد بضع عشرات متناثرين في أنحاء البلاد وفي مجتمعات مختلفة.

لم أكن أرغب في الإلحاح عليه وكنت أتأهب لتحيته للرحيل وطلبت من السيد فيركوفيتشوس أن يطلب منه أن يسجل لي وبلسان لغة الكاراي القديمة بركاته الدينية إذ أنه كان قد أخبرني أنه كان يتبوأ القيادة السياسية والروحية و يشغل منصب الحزان الأكبر great hazzan في مجتمعه وكان يتولى مهام إتمام الزواج وغيرها من المناسبات الأخرى بتلاوة الصلوات.

يعود عرق الكرايم إلى أصول تركية، ليس من الأتراك الذين يعيشون في تركيا Turkey الآن ولكنهم ينتمون إلى العائلة التوركية Turkic family الأكبر والتي تشمل الأذربيجانيين والكازاخيين والأوزباك وكذلك أتراك تركيا. وكان كرايم ليتوانيا ينحدرون من العديد من أسر الأتراك القرمانيين Crimean Turks والذين أتوا إلى ليتوانيا في عام ١٣٩٧ م على يد الأمير الليتوانى فيتاوتاس Vytautas.

وقد اعتنق الكرايم مذهباً من مذاهب اليهودية في القرن الرابع عشر، ولا يزالون يمارسون مذهباً من اليهودية حتى يومنا هذا. وقد كانت الكاراي تكتب لقرون طويلة بالمقاطع العبرية غير أن لها الآن نظاماً للكتابة يستعمل الحروف اللاتينية، ويرجع الفضل في ذلك إلى السيد فيركوفيتشيوس وآخرين ممن أدخلوا طرقاً جديدة في الكتابة.

وبغض النظر عن الحروف المستعملة في كتابة اللغة، فإن الكرايم يبجلون تقاليد تاريخهم القديم. ربما يكون هذا النظام الكتابي، في وقت قريب، هو كل ما تبقى من لغتهم التي كانت يوماً مستخدمة و تنبض بالحياة.

وبعد أن خلع نظارته السميكة، أشار لي السيد فيركوفيتشيوس أن أبدأ التسجيل قائلاً: "أنا ميخايل فيركوفيتشيوس من الكرايم ومولود في تراكاي في عام ١٩٢٤ م في مجتمعنا المحلي، مجتمع الكرايم، والذي نسميه جيمات Jimat في لغة الكاراي. كان الكرايم أجمعين يتحدثون الكاراي". ثم بدأ الرجل يغني بصوت متماوج غير أنه مليء بالقوة والإيمان. كان النص الأول الذي غناه يتمثل في الترنيمة ١ (أحد المزامير) Psalm وهي مقطوعة كنت أحفظها بالإنجليزية عن ظهر قلب تقول: " وسوف يكون كشجرة زرعتها أنهار الماء... " أنهى الحزان الأكبر حديثه معي وقد أعطاني كتاب صلوات صغير بني اللون يبدأ بهذه الكلمات: " بتلاوة هذه الصلوات كان أبناؤنا وأجدادنا الأتقياء يعبدون إله السماء الواحد القوى – تياري Tienri"

كنت أحمل مع كتاب الصلوات والذي طويته عميقاً في جيبي جهاز تسجيل عليه أغنيتان كان قد غناهما لي. لقد أخذت سنوات ودرست كثيراً حتى تمكنت من ترجمة الأغنية الثانية والتي كانت تقول كلماتها:

في يوم من الأيام كان هناك رجل

وقف على الجليد وأخذ يسأل:

يا أيها الجليد، من أين أوتيت قوتك؟

فرد الجليد :

لو كنت قوياً ما أذابتني الشمس

فسأل الرجل الشمس :

أيتها الشمس، من أين أوتيت قوتك؟

فردت الشمس :

لو كنت قوية ما غطتنى السحب.

فسأل الرجل السحب :

أيتها السحب من أين أوتيت قوتك؟

فردت السحب :

لو كنت قوية ما سقط مني المطر

لقد انكشفت الرؤية تجاه الكون وموقع الإنسان في داخله من هذه الأغنية، فقد وجدت كل شخصية في الأغنية من هو أقوى منها.

لقد خطرت على بالي هذه الأغنية القصيرة التي تتحدث عن القوة والضعف حينما علمت بوفاة السيد فيركوفيتشيوس في خريف عام ٢٠٠٠ م. في جنازته قام صديق بإلقاء المرثية التالية : "عندما كان من المستحيل الإيمان بالإله ومن المستحيل أداء الصلاة، كان ميكولاس أبعد نظراً منا فدرس ديننا وتقاليدنا...". لقد أحس مجتمع الكرايم الصغير بالحاجة إلى من يخلف الحزان الأكبر، زعيمهم الروحي، وواحد من آخر من عرفوا التقاليد القديمة [1] . لقد تزايد الاهتمام لدى بعض أفراد مجتمع الكرايم في ليتوانيا وبولندا وأوكرانيا بإحياء لغتهم ونقلها إلى الأحفاد، فهم ينظمون لقاءات سنوية ومدارس صيفية لتعليم اللغة لأبنائهم. ونظراً لأن الكرايم قد افتقدوا الزعماء

المؤهلين علمياً من الشيوخ لتلاوة الصلوات بلغة الأجداد، فقد استعملوا صوتاً مسجلاً من الماضي، صوت الحزان الراحل المسجل على شريط دى. في. دى، كي يساعدهم في التواصل مع الإله[٢].

هوامش دراسة حالة: عجلة الحظ ونفحة من البركة

(١) أود أن أتوجة بالشكر لهالينا كوبيكايت Halina Kobeckaite لمعاونتها الشخصية في هذا البحث. في عدد ديسمبر ٢٠٠١ من الدورية الكرايمية Awazymyz "صوتنا"، قالت المحررة ماريولا أبكويكز Mariola Abkowiz أن أحد أفراد عائلة جوزيف فيركويكز Josef Firkowicz قد تم اختياره هازاناً خلفا لميكولاس فيركوفيتشس، (ابكويكز، ٢٠٠١ م).

(٢) عاون اللغويان إيفا كساتو وديفيد نيثن Eva Csato and David Nathan مجتمع الكرايم في الحفاظ على لغته وإعادة إحيائها وذلك بعمل وسائط متعددة وتسجيلات على أشرطة "دي في دي" تفاعلية. يمكن للكرايم الآن تشغيل مقطع فيديو للسيد فيركوفيتشوس وهو يترنم بصلواتة في الاحتفالات الدينية. انظر أيضاً موقع الإنترنت:
<http://www.karaimi.home.pl/index.php?p=4>
<http://daugenis.mch.mii.lt/karaimai/literature1.htm>.